IUGJHR
Vol 24, No1, 2016, pp 112-133

ISSN 2410-3179

مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية

مرايا الأنا والآخر
في كتاب "الأيام" لطه حسين"

د. وليد محمود أبو ندى[1,*]

[1]قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين

تاريخ الإرسال (2015/05/25)، تاريخ قبول النشر (2015/06/17)

ملخص البحث

برز كتاب "الأيّام" لطه حسين بوصفه نصاً تأسيسياً لجنس السيرة الذاتية العربية، وسيطرت "أنا" عاليةَ الصوت في الأيام، ناقدة متأملة لكلّ ما يحيط بها، ولذا كانت هذه الدراسة حول "الأنا والآخر" في كتاب "الأيّام" على امتداد الرقعة الزمانية والمكانية، لحركة الأنا ورؤية الآخر في القرية والكتّاب والقاهرة والأزهر والجامعة والآخر الأوروبي، إذ تصبح مرآة الآخر وعياً برؤية الذات.

وكانت سيرة الأيّام إثباتاً للذات، وتعويضاً عن الحرمان، وانتصاراً على الآفة، وحلقةً من حلقات الصراع مع الآخر، وقد طفحت السيرة بتضخم "الأنا" وازدراء الآخر المصري، والافتتان بالآخر الأوروبي نمطاً للفكر والحياة، ومارس "طه حسين" لعبة الضمائر، وخالف ميثاق السيرة في كشف الحقيقة، وجاء الكتاب متردداً بين السيرة الذاتية القائمة على الحقيقة، والرواية الفنية المتكئة على الخيال.

الكلمات المفتاحية: سيرة ذاتية، الأيّام، طه حسين، الأنا والآخر.

The Reflections of "the Self" and the "Other" in Taha Hussain's Al Ayyam

Abstract

Al Ayyam written by Taha Hussain is one of the main genres of Arabic autobiographies, with 'the self' featuring predominantly in the book criticizing and depicting all that is surrounding it. The study of "the self and "the other" in Al Ayyam, coming across all boundaries of time and place, came to trigger "the self" and the depiction of "the other" across a wide range of issues such as the village, the book, Cairo, Al Azhar, the university and the "European" other. The depiction of "the other" has become the key to understanding "the self."

Al Ayyam has represented a self-realization autobiography, a reflection of the deprivation, a triumph over the blindness and a long episode in the struggle against "the other". The book was characterized by the over use of "the self", an indignation of the "Egyptian" other, and the considering of "the European" other as a model for life and thought. In addition, the writer made use of the "pronouns game", where he violated the rules of autobiography writing in revealing the truth. Al Ayyam was seen as a combination of an autobiography based on the truth on one hand and a technical narrative based on imagination, on the other.

Keywords: Autobiography, Al Ayyam, Taha Hussain, Self and the Other.

* البريد الالكتروني للباحث المرسل: wnada@iugaza.edu.ps

المقدمة:

السيرةُ الذاتيةُ جنسٌ مراوغٌ منْ أخطرِ أجناسِ الكتابةِ الأدبيةِ، وأكثرِها ارتباطاً بالأنا، وهوَ فنٌّ قديمٌ في أدبِ العربِ، ومنْ أهمِّ تصانيفِ السيرةِ الذاتيةِ العربيةِ القديمةِ "الاعتبارُ" لأسامةَ بنْ منقذٍ، و"المنقذُ منَ الضلالِ" للإمامِ الغزاليِّ، وسيرةُ ابنِ خلدونَ، وفي العصرِ الحديثِ كتابُ "الساقِ على الساقِ" لأحمدَ فارس الشدياق، و"الأيامُ" لطهَ حسين، و"حياتي" لأحمدَ أمين،، و"سبعونَ" لميخائيلَ نعيمةَ، و"البئرُ الأولى" لجبرا إبراهيم جبرا، و"غربةُ الراعي" لإحسان عباس و"رحلةٌ جبليةٌ صعبةٌ" للشاعرةِ فدوى طوقان.

ويبرزُ كتابُ الأيامِ كإحدى المحاولاتِ الفنيةِ المتقدمةِ–زمناً– في الفنِّ السيرِ الذاتيِّ الحديثِ، إذْ نظرَ إليهِ بعضُهمْ بوصفِهِ "النصُّ التأسيسيُّ العربيُّ لجنسِ السيرةِ الذاتيةِ"[1]، وأنَّ أثرَهُ يضارعُ ما كتبَ روسو، إذْ يقولُ محمدٌ الباردِيُّ: "كانَ أثرُهُ في الأدبِ العربيِّ الحديثِ أشبَهُ بأثرِ اعترافاتِ روسو في الأدبِ الفرنسيِّ في القرنِ التّاسعِ عشرَ، إذْ وضعَ حجرَ الزّاويةِ لجنسٍ أدبيٍّ جديدٍ، هو ما سيسمَّى اصطلاحًا "سيرةً ذاتيّةً""[2].

وهيَ ذاتُ قيمةٍ خاصةٍ بدورانِها حولَ شخصيةٍ إشكاليةٍ في فكرِ النهضةِ، إذِ المرجوُّ أنْ تسجلَ هذهِ السيرةُ حقبةً مهمةً في تاريخِ مقدماتِ النهضةِ الأدبيةِ الحديثةِ، بقلمِ أحدِ المشاركينَ فيها.

وقدْ أصدرَ طهَ حسين سيرتَهُ الذاتيةَ (الأيامَ) في ثلاثةِ أجزاءٍ، إذْ يدورُ الجزءُ الأولُ الذي صدرَ سنةَ 1927[3] حولَ نشأتِهِ في قريةِ "مغاغةٍ" في الصعيدِ الأعلى، وميلادِهِ في الرابعِ عشرَ منْ شهرِ نوفمبر سنةَ 1889حتى سنةَ 1902.

ويدورُ الجزءُ الثاني الذي صدرَ 1939حولَ حياتِهِ في القاهرةِ سنة 1902، وانتسابِهِ للأزهرِ ثمَّ الجامعةِ المصريةِ، وحصولِهِ على درجةِ دكتوراه الدولةِ سنةَ 1908[4].

ويدورُ الجزءُ الثالثُ الذي صدرَ 1972[5]حولَ إقامتِهِ في فرنسا حتى عودتِهِ وتعيينِهِ أستاذاً في الجامعةِ المصريةِ سنةَ 1921.

وتحفلُ سيرةُ (الأيامِ) بالغيريةِ ليسجلَ رؤيةَ طهَ حسين للآخرِ، فالآخرُ مرآةُ الأنا، إذْ "تتحولُ مرآةُ الآخرِ بديلاً لمرآةِ الذاتِ"، وتنتقلُ بؤرةُ السردِ بينَ الأنا والآخرِ في توترٍ وتداخلٍ فنييْنِ، يشكلانِ إطاراً جامعاً للأنا في مرآةِ الآخرِ، أوِ الآخرِ في مرآةِ الأنا.

المبحثُ الأولُ: السيرةُ الذاتيةُ: تعريفٌ وشروطٌ

"السيرةُ" في اللغةِ: هيَ الطريقةُ، أوِ السنةُ والهيئةُ، و"سارَ" الوالي في الرعيةِ "سيرةً" حسنةً، وأحسنَ "السيرَ" وهذا في "سِيَرِ" الأولين[6].

وقيلَ: "السيرةُ" الحالةُ التي يكونُ عليها الإنسانُ وغيرُهُ، ويقالُ: قرأتُ سيرةَ فلانٍ: أيْ تاريخَ حياتِهِ[7].

واجتهدَ الدارسونَ في تعريفِ مصطلحِ السيرةِ الذاتيةِ على النحوِ الآتي:

- "ترجمةٌ لحياةٍ أوْ جزءٍ منْ حياةِ شخصيةٍ إنسانيةٍ ذاتَ تميزٍ معينٍ"[8].
- "روايةُ حياةِ المؤلفِ بقلمِهِ... تحكي ماضياً بسردٍ متواصلٍ"[9].

---

[1] انظر، السيرة الذاتية في الخطاب الروائي العربي، عامر الدبك (ص:9).

[2] عندما تتكلم الذات، محمد الباردي (ص:5).

[3] نشر في حلقات مسلسلة في مجلة الهلال سنة1926، انظر، ماذا يبقى من طه حسين، سامح كريم (ص:170).

[4] أيام طه حسين بين الرواية والترجمة الذاتية، طه وادي (ص:36).

[5] نشر مذكرات بمجلة آخر ساعة سنة 1955، انظر، ماذا يبقى من طه حسين، سامح كريم (ص:170).

[6] لسان العرب، ابن منظور.

[7] المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون (476/1).

[8] في الأدب الحديث ونقده، عماد علي سليم الخطيب (ص:144).

- "وصفٌ لحياةِ شخصٍ بواسطةِ الشخصِ نفسِه"[10].
- "حَكْيٌ استعاديٌّ نثريٌّ يقومُ بهِ شخصٌ واقعيٌّ عنْ وجودِهِ الخاصِّ، وذلكَ عندما يُركِّزُ على حياتِهِ الفرديّةِ وعلى تأريخِ شخصيتِهِ بصفةٍ خاصةٍ"[11].

ولا تخرجُ السيرةُ الذاتيةُ في دلالتِها عنْ كونِها قصةَ حياةِ المؤلفِ التي يسردُها بنفسِهِ، متقلةً بإكراهاتِ الصدقِ والحقيقةِ، وكشفِ دخائلِ النفسِ ونضوجِها وتطورِها؛ لكيْ لا تنقلبَ إلى سردٍ مدائحيٍّ للذاتِ المنتفخةِ أوِ المهزومةِ التي تبحثُ عنِ انتصارٍ وهميٍّ في الماضي.

والزمنُ في السيرةِ الذاتيةِ ثلاثيُّ الأبعادِ: فثمةَ زمن ماض مستعادٍ هوَ زمنُ الأحداثِ، وزمن حاضر هوَ زمنُ الكتابةِ، وزمن غير متعينٍ يلقيهِ وعيُ القارئِ في أثناءِ إنجازِ فعلِ القراءةِ.

أمّا الجانبُ اللسانيُّ (روايتُها بضميرِ المتكلمِ) الدالُّ على العائديةِ، حيثُ يكونُ التبئيرُ الوحيدُ على بطلِ السيرةِ شيئاً مفروضاً في الشكلِ السيرِ الذاتيِّ، والتبئيرُ منْ وجهةِ نظرِ الساردِ يتحددُ بالعلاقةِ معَ معلوماتِهِ الحاليةِ كساردٍ، وليسَ بالعلاقةِ معَ معلوماتِهِ الماضيةِ بوصفِهِ بطلاً، أيْ أنَّ اتجاهَ السردِ لا يبدأُ بشكلٍ خطيٍّ، كما هوَ في الحياةِ التي عاشَها في الماضي؛ بلِ الحياةُ التي يرويها (الآنَ) بوصفِها جزءاً منْ ماضيه[12].

وترتبطُ السيرةُ الذاتيةُ بالواقعِ، وتُبنى على تصريحِ الكاتبِ بأنّهُ يحكي حياتَهُ، ويعرضُ مسارَ أفكارِهِ ومشاعرِهِ، ذلكَ التصريحُ يسميهِ فيليب لوجون **بميثاقِ السيرةِ الذاتيةِ**، أوِ العقدِ السيريِّ، فشرطُ وجودِ السيرةِ الذاتيةِ هوَ (الميثاق الأوتوبيوغرافيُّ) لتكونَ هناكَ سيرةٌ ذاتيةٌ، ويكونَ هناكَ تطابقٌ بينَ المؤلفِ والساردِ والشخصيةِ[13]، أيْ هوَ مَنْ يَعْرِضُ ويُعْرَضُ ويُحَلِّلُ ويُحَلَّلُ ويَصِفُ ويُوصَفُ، فهناكَ ثلاثةُ أنواعٍ منَ الأنا تندرجُ في المتنِ السيرِ – ذاتيِّ هيَ:

1. أنا المؤلفُ الحقيقيُّ أوِ الكاتبُ المعلنُ صراحةً وفقَ الميثاقِ أوِ التعاقدِ السيرِ – ذاتيِّ.
2. أنا الساردُ المتموضعُ في متنِ السيرةِ الذاتيةِ، بكونِها سرداً ذاتياً.
3. أنا الكائنُ السيريُّ الذي يتعينُ بأبعادٍ محددةٍ نسبةً إلى الأفعالِ والوصفِ والمحدداتِ السرديةِ داخلَ العملِ نفسِه[14].

إنَّ تلازمَ الأنواتِ الثلاثةِ ضرورةٌ في إنجازٍ صحيحٍ للكتابةِ السيرِ– ذاتيةِ؛ كيْ لا يحدثَ الخلطُ بينها وبينَ الروايةِ أوْ أشكالِ السردِ الأخرى، التي يكونُ فيها الراوي مشاركاً أوْ متلفظاً بضميرِ المتكلمِ.

وفنُّ السيرةِ نوعٌ منَ الأدبِ يجمعُ بينَ التحري التاريخيِّ، والإمتاعِ القصصيِّ، منْ خلالِ أنّهُ دراسةٌ لحياةِ فردٍ منَ الأفرادِ، ورسمُ صورةٍ دقيقةٍ لشخصيتِهِ.

ويرى إحسانُ عباس أنَّ الإحساسَ التاريخيَّ في السيرةِ قدْ يحوّلُ طاقةَ الحنينِ إلى الماضي إلى قوةٍ إيجابيةٍ، تجعلُ المجتمعَ والأفرادَ يرونَ المستقبلَ، فيعبرُ عنْ ذلكَ بقولِهِ: "فتمتدُّ الرؤيةُ وتثورُ الرغبةُ في استكشافِ المجهولِ، وتنبعثُ روحُ المغامرةِ والمجازفةِ، وينطلقُ الأفرادُ والشعوبُ إلى آفاقٍ جديدةٍ في مواطنِ الشعورِ والفكرِ والعملِ"[15].

---

(9) المعجم الأدبي، جبور عبد النور (ص:143).

(10) السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، صالح الغامدي (ص:74).

(11) السيرة الذاتية، فيليب لوجون، ترجمة: عمر حلي (ص:22).

(12) انظر، السيرة الذاتية النسوية: البوح والترميز القهري، حاتم الصكر (ص:209).

(13) السيرة الذاتية، فيليب لوجون (ص:24).

(14) السيرة الذاتية النسوية، حاتم الصكر (ص:211).

(15) فن السيرة: إحسان عباس (ص:123).

فكاتبُ السيرةِ الذاتيةِ التاريخيةِ يتحرّى ويتوخى استخدامَ الحقائقِ التاريخيةِ دونَ الانجرارِ لأيِّ قدرٍ منَ الخيالِ أوِ الأحداثِ المخترعةِ والملفقةِ، وإنْ كانَ بوصفِهِ مؤرخاً غيرَ ملزمٍ بتقديمِ الوثائقِ والأسانيدِ، أوْ حتى مناقشةِ الآراءِ المتعارضةِ، أوْ إثباتِ المصادرِ والمراجعِ التي اعتمدَ عليْها[16].

وتتميزُ السيرةُ الذاتيةُ بأنّ كاتبَها يكشفُ عنْ خبايا سرّهِ وسيرتِهِ، فيعرضُ لنشأتِهِ وتربيتِهِ وأطوارِ حياتِهِ، وما حدثَ فيها منْ خبراتٍ وتجاربَ، وما واجهَهُ منْ مواقفَ، والظروفُ الاجتماعيةُ والاقتصاديةُ والسياسيةُ التي لازمَتْ حياتَهُ، ويُعيدُ النظرَ فيها ويُجري مراجعاتِهِ، ويكونُ عرضُهُ متسماً بالوضوحِ والصراحةِ والشجاعةِ التي تجعلُهُ يخرجُ عنْ ذاتِهِ، ويقفُ بذلكَ موقفاً موضوعياً، ولا يخشى مواجهةَ حقائقِ حياتِهِ مهما كبرَتْ أو صغرَتْ قيمتُها، فالسيرُ الذاتيةُ تنبعُ منَ الداخلِ متجهةً نحوَ الخارجِ في تكوينِ صورةٍ سيريةٍ صادقةٍ.

المبحثُ الثاني: دوافعُ كتابةِ السيرةِ عندَ طهَ حسين

تتعددُ دوافعُ كتابةِ السيرةِ الذاتيةِ، منْها إحساسُ الكاتبِ بالاضطهادِ منْ حولِهِ، فيتخففُ منْ هذا الشعورِ بالحديثِ عنْهُ، أوْ إذا أحسَّ بوقعِ ذنوبِهِ وآثامِهِ، أراحَ ضميرَهُ بالاعترافِ بها، أوْ إذا مرَّ بصراعٍ نفسيٍّ أوْ روحيٍّ أوْ فكريٍّ، وخرجَ منْهُ سالمًا رسمَ صورةٍ لذلكَ الصراعِ، وبدا ظافراً منتصراً، أوْ إذا اتُّهِمَ بالتقصيرِ أوِ الفشلِ فهوَ يظهرُ الاعتذارَ والتعليلَ لما كانَ منْه[17].

ولعلّ دخولَ الكتابةِ العربيةِ مرحلةَ النرجسيةِ في العصرِ الحديثِ، أشعلَتْ منَ النصوصِ السيرِ الذاتيةِ، وباتَ الكشفُ عنْ دخائلِ النفسِ أمراً محبّباً، لدى كثيرٍ منَ الأدباءِ يشعرونَ معَهُ بتفوقِهِمْ وانتصارِهِمْ على ضعفِهِمْ الإنسانيّ، وتميزِهِمْ عنْ غيرِهِمْ منَ الناسِ.

ورأى بعضُهُمْ أنَّ "الدوافعَ الروحيةَ المتمثلةَ في لذةِ فعلِ الكتابةِ والدوافعِ النفسيةِ التي على شكلِ تعويضٍ، أوْ إعادةِ تشكيلٍ للحظاتِ الماضي لإعادةِ قراءتِهِ منْ جديدٍ"[18]، وهيَ دوافعُ إنسانيةٌ مشروعةٌ للكتابةِ السيرِ ذاتيةِ.

ولعلّ لذةَ الاسترجاعِ –استرجاعُ الحياةِ– هيَ دافعٌ يتقدمُ على غيرِهِ، فالكاتبُ يجدُ اللذةَ الفنيةَ الفريدةَ في فعلِ الكتابةِ نفسِهِ؛ ذلكَ لأنَّ كاتبَ السيرةِ الذاتيةِ يتلذذُ باستحضارِ الذكرياتِ التي عاشَها، فهوَ يعيشُ الحياةَ مرتيْنِ، مرةً حقيقةً وتذكراً أخرى، يقولُ محمد شكري في بدايةِ سيرتِهِ الذاتيةِ المعنونةِ بـ"الخبزِ الحافي": "ها أنذا أعودُ لأجوسَ كالسائرِ نائماً، عبرَ الأزقةِ والذكرياتِ، عبرَ ما خطّطْتُهُ عنْ "حياتي" الماضيةِ_ الحاضرةِ... كلماتٌ واستيهاماتٌ وندوبٌ لا يلئمُها القولُ، أينَ عُمري منْ هذا النسيجِ الكلاميِّ؟ لكنَّ عبيرَ الأماسي والليالي المكتظةِ بالتوجسِ واندفاعِ المغامرةِ، يتسللُ إلى داخلي؛ ليُعيدَ رمادَ الجمراتِ غلالةً شفّافةً آسرةً"[19].

وقدْ مرَّ طهَ حسين بمرحلةِ صراعٍ معَ المجتمعِ والناسِ وتقاليدِهِمْ وثقافتِهِمْ، وكانَ يَدْأَبُ على نحوٍ صريحٍ أنْ يستفزَّ الآخرينَ بآرائِهِ ونقدِهِ، وأنْ يسخرَ ممّا ألفَ الناسُ واعتقدوهُ، فكمَا غربلَ الناسُ نخّلوهُ، ودارَتْ معركةٌ شرسةٌ بينَ كياناتٍ مُهمةٍ في المجتمعِ المصريِّ، وفي مقدمهِمِ مؤسسةُ "الأزهرِ الشريفِ" وبينَ طهَ حسين، ولا سيّما معركة كتابِهِ "في الشعرِ الجاهليّ" الذي صدرَ سنةَ 1926[20]"، ويرى عبدُ المحسنِ بدر أنَّ "الإحساسَ بالظلمِ الذي واجهَهُ طهَ حسين نتيجةً للضجةِ والثورةِ التي واجهَتْ بها البيئةُ كتابَهُ "الشعرُ الجاهليُّ"، هوَ الذي أعادَ إلى ذاكرتِهِ صورَ الحرمانِ والظلمِ التي تعرّضَ لها في طفولتِهِ وصباهُ؛ نتيجةً لجهلِ بيئتِهِ، هذا الجهلُ الذي يواجهُهُ منْ جديدٍ في رجولتِهِ"[21].

---

[16] تذوق الأدب طرقه ووسائله: محمود ذهني (ص:169– 170)).

[17] انظر، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، يحيى إبراهيم عبد الدايم (ص:117وما بعدها)).

[18] السيرة الذاتية في الخطاب الروائي العربي، عامر الدبك (ص:58)).

[19] الخبز الحافي (ص:7)).

[20] انظر، "تحت راية القرآن" للرافعي).

[21] تطور الرواية العربية الحديثة في مصر(1870–1930)،عبد المحسن طه بدر (ص:307).

ويرى عبدُ الحميدِ يونس أنّ سيرةَ "الأيام" جاءَت "استجابةً للهمومِ الثقالِ التي كانَ يحسُّ بها وقتذاكَ إبّانَ الاضطهادِ الذي وقعَ عليْهِ منْ أجلِ تحريرِ الفكرِ باصطناعِ الشكِّ في الرواياتِ القديمةِ"[22].

وهذا يشي أنّ "الأيامَ" صورةٌ منْ صورِ كفاحِهِ ضدَّ الآخرِ، وتعبيرٌ عنْ رغبةٍ شديدةٍ في التشبثِ بالحياةِ، وإثباتِ الذاتِ، والانتصارِ على حرمانِ البيئةِ.

وهذا الدورُ الذي وجدَ فيهِ طهَ حسين يتقاطعُ معَ أكثر منْ كاتبٍ عانى "أزمةَ الذاتِ معَ الحاضرِ، والقلقَ أمامَ المستقبلِ، أوِ استغرقَتْهُ متعةُ الذكرياتِ، ووجدوا أنَّ أكثرَ أوقاتِ كتابتِها يأتي في أوقاتِ الشعورِ بالظلمِ، أوِ التشهيرِ، أوِ الاضطهادِ"[23].

ونجدُ أنّ طهَ حسين قدْ دارَ حولَ هذا الدافعِ في مقدمةِ إحدى طبعاتِ الكتابِ سنةَ 1954:"إنّما أمليْتُهُ لأتخلصَ منْ بعضِ الهمومِ الثقالِ، والخواطرِ المحزنةِ التي كثيراً ما تعتري الناسَ منْ حينٍ وحينٍ"[24].

وتصبح الكتابةُ – ههنا– مأوىً وملاذاً منْ قسوةِ اللحظةِ الحاضرةِ، وتعودُ الأنا للذاكرةِ للاحتماءِ بالماضي.

المبحثُ الثالثُ: مرايا الأنا والآخرِ في القريةِ

تتركزُ دراسةُ المحمولِ الدلاليِّ في السيرةِ الذاتيةِ على "الأنا الساردةِ"، وموضعِها منْ بؤرةِ السردِ، ورؤيتِها للآخرينَ، إذْ تتقمصُ هذهِ الأنا عدةَ مواقعٍ، وتتجولُ في آبارِها العميقةِ، وتغرفُ منْ "ما وراءَ الوعيِ"، مجتهدةً أنْ تخترقَ حاجزيِ الزمانِ والمكانِ؛ لتعودَ بالمتلقي إلى بداياتِ تشكلِ الوعيِ، وبروزِ الأنا، والإحساسِ بالذاتِ مستقلةً ومتميزةً عنِ الآخرِ، "فالمحورُ الذي تدورُ عليهِ السيرةُ الذاتيةُ، هوَ الذاتُ الفرديةُ، ليسَ بمعناها الحقيقيِّ السيكولوجيِّ – فحسب–، إنّما هيَ تكوينٌ وجدانيٌّ ومعرفيٌّ منظورٌ إليهِ منَ الباطنِ الشخصيِّ، وبذلكَ تتحولُ إلى ذاتٍ عميقةِ التمركزِ تحاولُ قراءةَ نفسَها منْ خلالِ مرآةِ النبعِ في ذاتٍ رائيةٍ ومرئيةٍ، تبحثُ عنْ نفسِها في التجربةِ المستعادةِ والمصاغةِ صياغةً فنيةً في النصِّ، بعدَما تحوّلَتْ – على صعيدِ الواقعِ– إلى مجردِ ماضٍ مختزنٍ في الذاكرةِ"[25].

إذاً ليستْ سرداً عشوائياً للأحداثِ، ولا تذكراً للماضي فحسْب، إنّها عمليةٌ استكشافيةٌ واعيةٌ ومنظمةٌ لاستنطاقِ الذاتِ، وغربلةِ متعلقاتِها؛ لكيْ تنزلَ منْ ثقوبِ الذاكرةِ إلى مدادِ الكتابِ.

وينفتحُ مشهدُ السيرةِ عندَ طهَ حسين على سياجٍ ماديٍّ وضعَ فيهِ (الفتى)، فهو لا يتخطّاهُ؛ "فإنّما ذكرى هذا السياجِ الذي كانَ يقومُ أمامَهُ منَ القصبِ.. يذكرُ أنَّ قصبَ هذا السياجِ كانَ أطولَ منْ قامتِهِ، فكانَ منَ العسيرِ عليْهِ أنْ يتخطّاهُ إلى ما وراءَهُ، ويذكرُ أنَّ قصبَ هذا السياجِ، كانَ مقترباً كأنّما كانَ متلاصقاً فلمْ يستطعْ أنْ ينسلَ في ثناياهُ"[26].

ووصفُهُ للسياجِ وصفٌ نفسيٌّ مجازيٌّ لا يكادُ يخلو منْهُ بابٌ منْ أبوابِ السيرةِ، فهيَ ذاتٌ أسيرةٌ في سجنٍ مكانيٍّ مرتبطٍ بالنشأةِ الريفيةِ، ثمّ يتحولُ هذا السياجُ إلى سجنٍ أبديٍّ نتيجةَ آفةِ العمى، يُصيبُ الأنا بالتوترِ الدائمِ، والشقاءِ والشعورِ بالنقصِ أمامَ الآخرينَ، "فقدْ أحسَّ أنَّ لغيرِهِ منَ الناسِ فضلاً عليهِ، وأنَّ إخوتَهُ وأخواتِهِ، يستطيعونَ ما لا يستطيعُ، وينهضونَ منَ الأمرِ ما لا ينهضُ لهُ، وأحسَّ أنَّ أمَّهُ تأذنُ لإخوتِهِ في أشياءَ تحظرُها عليهِ، وكانَ ذلكَ يُحفظُهُ؛ لكنْ ما تلبثُ هذهِ الحفيظةُ، أنِ استحالتْ إلى حزنٍ صامتٍ عميقٍ.."[27].

---

[22] طه حسين كما يعرفه كتاب عصره، عبد الحميد يونسى (ص:64).

[23] أدب السيرة الذاتية، محمد سيد عبد العال (ص:19).

[24] مقدمة "الأيام" (ص:7).

[25] انظر، الذاكرة الجمعية والذاكرة المشتهاة في مدارات السيرة، فالح الطويل (ص:21).

[26] الأيام (4/1).

[27] الأيام (18/1).

هذهِ المقارناتُ المحزنةُ بينَهُ وبينَ غيرِهِ كانتْ تقودُهُ إلى مشاعرَ سلبيةٍ تجاهَ نفسِهِ وغيرِهِ، يشعرُ معَها بالعجزِ، ويحسُّ بعميقِ آفتِهِ وقصورِ قدراتِهِ أمامَ الآخرينَ، وخرجَ منْ إحساسِهِ بهذهِ الآفةِ إلى شخصيةٍ تؤثرُ الانطواءَ مغرقةً في حزنِها وصمتِها، وهذا الصمتُ يتحولُ إلى تأملٍ ناقدٍ لمَا حولَهُ، فيرى الحياةَ والأشياءَ غيرَ ما يراها الناسُ، وهذا أوْجدَ لديهِ تبايناً وافتراقاً عنِ الناسِ، وقدِ امتزجَ هذا بشعورِ النقصِ أمامَ الآخرينَ؛ ممَّا انْعكسَ إلى عدوانيةٍ قاسيةٍ تتمثلُ في الجدالِ والسخريةِ والازدراءِ بالآخرِ، ممَّنْ يهملُهُ، أوْ ينكأُ جرحَ آفتِهِ، وبدَأتْ هذهِ القسوةُ بالأقربينَ، ثمَّ اتسعَتْ دائرتُها، يقولُ عنْ والديْهِ: "وما هيَ أيامٌ حتى سئمَ لقبَ الشيخِ، وكرِهَ أنْ يُدعى بهِ، وأحسَّ أنَّ الحياةَ مملوءةٌ بالظلمِ والكذبِ، وأنَّ الإنسانَ يظلمُهُ حتى أبوهُ، وأنَّ الأبوةَ والأمومةَ لا تعصمُ الأبَ والأمَّ منَ الكذبِ والعبثِ والخداعِ"[28].

"ألمْ يكنِ الشيخُ قدْ أقسمَ أن لا يعودَ الصبيُّ إلى الكُتّابِ أبداً، وها هوَ ذا قدْ عادَ!، وأيُّ فرقٍ بينَ الشيخِ يقسمُ ويحنثُ، وبينَ سيدِنا يُرسلُ الطلاقَ والأيمانَ إرسالاً وهوَ يعلمُ أنّهُ كاذبٌ"[29].

كلماتٌ قاسيةٌ في حقِّ الوالديْنِ تُذكرُنا بمَا سردَتْهُ فدوى طوقان عنْ والدِها[30]، ولعلَّ ما يمثلُ الوالدانِ –أحياناً– منْ سلطةٍ وتحكُّمٍ تجاهَ الأبناءِ، تترجمُ عندَ الأبناءِ الطامحينَ للتحررِ إلى شيءٍ منَ النفورِ منَ السلطةِ الأبويةِ، ويذكرُ فيصلُ دراج أنَّ طهَ حسين أدركَ مبكرًا "أنَّ الأسرةَ لا تعني الفضيلةَ"[31]، فسوّغَ لنفسِهِ انتقادَ جدِّهِ بعدَ والديْهِ، إذْ "كانَ جدُّهُ هذا ثقيلُ الظلِّ بغيضاً إليهِ، كانَ يقضي في البيتِ فصلَ الشتاءِ منْ كلِّ سنةٍ، وكانَ قدْ صلُحَ ونَسُكَ حينَ اضطرتْهُ الحياةُ إلى الصلاحِ والنُّسكِ.."[32].

تركَتْ آفةُ العمى أثرَها على الصبيِّ وأحكامِهِ، وصُبَّ هذا في نصيّةٍ لغويةٍ قاسيةٍ، تبدو منْها عقدةُ "الأنا" التي لمْ ترَ وعياً منْ بيئتِها بآفتِها، وهيَ ما زالَتْ صغيرةً عاجزةً تنوءُ بأثقالِ هذهِ الآفةِ المقيدةِ للخيالِ والحواسِّ والحركةِ، حتى تتركَ في ذهنِ الفتى شيئاً منَ الخرافةِ وخيالاتِ الجنِّ وأوهامِ العفاريتِ، "كانَ يقضي ليلتَهُ، خائفاً مضطرباً إلا حينَ يغلبُهُ النومُ، وما كانَ يغلبُهُ النومُ إلا قليلاً، كانَ يستيقظُ مبكراً، ويقضي شطْراً طويلاً منَ الليلِ في هذهِ الأهوالِ والأوجالِ والخوفِ منَ العفاريتِ.."[33].

وتعممُ النقمةُ على البيئةِ الريفيةِ بأكملِها التي كانَتْ سبباً مباشراً في آفةِ العمى، وموتِ أختِهِ الصغرى، "وأهلُ الريفِ والأطفالُ في القرى، ومدنُ الأقاليمِ معرضونَ لهذا النوعِ منَ الإهمالِ، فلسفةٌ آثمةٌ وعلمٌ ليسَ أقلَّ منها إثمٌ، إذْ يشكو الطفلُ وقلمّا تُعنى بهِ أمُّهُ، وعلى هذا النحوِ فقدَ صبيّنا عينيْهِ، أصابَهُ الرمدُ فأُهملَ يوماً ثمَّ دُعي الحلاقُ فعالجَهُ علاجاً ذهبَ بعينيْهِ" [34].

ويتضحُ منَ النصِّ المتقدمِ كيفَ يستحضرُ طه حسين معَ موتِ أختِهِ الصغرى، عاهتُهُ التي أسرتْهُ في سجنٍ طويلٍ، وهذا الاستحضارُ يشيرُ عندَ الساردِ إلى الربطِ بينَ الموتِ والعمى؛ بحيث تُصبحُ قصةُ موتِ الأختِ إطاراً لقصةِ العمى.

وتتسعُ دائرةُ الغضبِ والضيقِ على كلِّ ما يتصلُ بهذهِ البيئةِ، لتنقلبَ إلى شيءٍ منَ الازدراءِ في حديثِهِ عنْ سيدِنا والكتّابِ والعريفِ، بقسوةٍ لا نعرفُ لها مسوّغاً، فقدْ وصفَ "شيخَهُ" بالكذابِ والغشاشِ والأثرِ، وشبّهَ صوتَهُ بصوتِ الحمارِ، أمّا العريفُ فسيدُنا يكرهُهُ؛ لأنّهُ مكّارٌ داهيةٌ،

[28] الأيام (38/1).

[29] الأيام (ص:65/1).

[30] انظر، ما كتبته في رحلة جبلية، رحلة صعبة (ص:40).

[31] الحداثة المتقهقرة (طه حسين وأدونيس) (ص:44).

[32] الأيام (26/1).

[33] الأيام (9/1).

[34] الأيام (120/1).

سارقٌ عابثٌ، وأنّهما متباغضانِ، ومضطرانِ لأنْ يتعاونا على كرهٍ ومضضٍ، ثمّ يسوقُ عقداً بينَهما قائماً على أنْ يساعدَ العريفُ سيدَنا في إدارةِ الكتّابِ والتحفيظِ، مقابلَ ربعِ النقدِ الذي يأتي للكتّابِ[35].

وهوَ في سردِهِ لبنودِ العقدِ، إنَّما يتكئُ فيهِ على خيالِهِ، فهوَ لمْ يشهدْ هذا العقدُ، وقدْ كانَ قبلَ مجيئِهِ للكتّابِ، ممّا يعني تداخلَ السيرةِ والروايةِ عندَ طهَ حسين في الأيامِ.

ثمّ يواصلُ عبثَهُ وازدراءَهُ بالكتّابِ وأهلِهِ: "..حتى إذا كانَ العصرُ أقبلَ عليهِ أصحابُهُ ورفاقُهُ مُنْصَرَفهم منَ الكتّابِ، فيقصُّونَ عليْهِ ما كانَ في الكُتّابِ، وهوَ **يلهو ويعبثُ** بهِمْ وبكتّابِهِمْ وبسيدِنا والعريفِ"[36].

يوظّفُ طهَ حسين -هنا- ضميرَ (الهو) الذي يعني انفصالاً بينَ الساردِ والصبيّ، وهذهِ لعبةُ الضمائرِ تتفقُ معَ العبثِ واللهوِ الذي كانَ يصدُرُ منْهُ تجاهَ الكتّابِ وسيدِنا والعريفِ.

ونلحظُ استطرادَ طهَ حسين في حديثِهِ عنْ ذكرياتِ الكتّابِ، واستغراقَهُ في التفاصيلِ، وقسوتَهُ على كلّ شيءٍ يتصلُ بالكتّابِ، معَ قولِهِ: "لا يعرفُ كيفَ حفظَ القرآنَ، ولا يذكرُ كيفَ بدأَهُ، ولا كيفَ أعادَهُ.."[37]، وهوَ يشي بشيءٍ منَ "الجوّ المبهمِ الذي يعيشُ فيهِ الصبيُّ بطلُ الروايةِ"[38]؛ ولكنّهُ يقفُ هنا مطولاً ومفصّلاً ومتشفياً منْ سيدِنا عندَما أُحرجَ أمامَ ذاكَ المطربشِ الذي "يتكلمُ الفرنسيةَ.. وكانَ خفيفَ الظلّ جذاباً.. فقدْ حُببَّ إليهِ القرآنُ وعلمُ التجويد، ولا تسلْ عنْ إعجابِ أهلِ القريةِ وإكبارِهِمْ لهذا المطربشِ"[39].

تنهضُ هنا المقارناتُ أمامَ الأنا، وتعملُ الغريزةُ الصامتةُ عندَ طهَ حسين؛ لكيْ تقررَ تفضيلاً مطلقًا لعالمٍ جديدٍ يجمعُ بينَ القرآنِ واللغةِ والفرنسيةِ، والطربوشِ واحترامِ الناسِ، إزاءَ نمطِ البيئةِ الريفيةِ المتمثلِ في سيدِنا، وتخلفِهِ وكذبِهِ، واستعمالِ نعلِهِ الغليظِ طريقةً للتعليمِ، وهوَ استباقٌ مهمٌّ في سيرةِ الأيامِ؛ لكيْ يكونَ هذا النمطُ "المطربشُ" الأقربَ إلى طهَ حسين؛ بلْ تتغرسُ كأمنيةٍ ساكنةٍ في أعماقِهِ.

وعدوانيتُهُ تجاهَ سيدِنا وما يمثّلُهُ غيرُ مسوّغةٍ، وقدْ عرَضَ بعضُ الأدباءِ المصريينَ لتجربةِ الكتّابِ " كأحمدَ أمينٍ في حياتي، ومحمد حسن هيكل في أوقاتِ الفراغِ، وأحمد حسن الزيات في وحي الرسالةِ عنْ فقيهِ القريةِ، وهؤلاءِ الثلاثةُ قدْ عانُوا منَ الفقيهِ المتحكمِ، ما عاناهُ الدكتورُ طه حسين؛ ولكنّهمْ لمْ يندفعُوا في سُبابٍ مفرطٍ لا يلتمسُ العذرَ، ولا يقدرُ ظروفَ الزمانِ والمكانِ"[40].

ولعلّ موقفَ الساردِ هذا لمْ يكنْ موقفَهُ آنذاكَ؛ بلْ تكوّنَ مؤخراً بعدَ اتصالِهِ بمدرسةِ أحمدَ لطفي السيد، والمستشرقينَ في الجامعةِ المصريةِ الجديدةِ، وسفرِهِ إلى فرنسا، وهنا تختلطُ السيرةُ الذاتيةُ القائمةُ على تقريرِ الحقائقِ والأحداثِ ووصفِها في زمانِها ومكانِها المعينيْنِ وبينَ السرد القصصيّ القائمِ على الخيالِ، وهذا ممّا يُضعفُ سطوعَ الحقيقةِ في السيرةِ، ويُخلُّ بالميثاقِ السيريّ.

وتنتفخُ الأنا أمامَ الآخرِ؛ إذْ تتوهّمُ أنَّها فوقَ غيرِها، فهوَ يتحدثُ عنْ تقربِ طلابِ الكتّابِ إليْهِ، وكيفَ اتخذَهُ العريفُ عريفاً على غيرِهِ، وكيفَ كانَ الصبيةُ يتوددونَ إليهِ، "كانَ إرضاؤهُ شاقاً، وكانَ الصبيانُ يتفنّنونَ في إرضائهِ.."[41].

"كانَ سعيداً في هذهِ الأيامِ، كانَ يشعرُ بشيءٍ منَ التفوقِ على رفاقِهِ وأترابِهِ، فهوَ لا يذهبُ إلى الكتّابِ، كمَا يذهبونَ، وإنَّما يسعى إليهِ الفقيهُ سعياً، وسيسافرُ إلى القاهرةِ حيثُ الأزهرِ.."[42].

---

[35] انظر، الأيام (49،50/1).

[36] الأيام (63/1).

[37] الأيام (28/1).

[38] "عميد الأدب ومعجزة الأيام" عبد الرحمن صدقي ،طه حسن كما يعرفه كتاب عصره (ص:16).

[39] الأيام (112/1).

[40] شخصيات مظلومة في كتاب الأيام، محمد رجب بيومي (ص:52).

[41] الأيام (54/1).

"كمْ كانَ فرحًا حينَ غدا إلى الكتّابِ يومَ السبتِ وفي يدِهِ نسخةٌ منَ الألفيةِ، لقدْ رفعتْهُ هذهِ النسخةُ درجاتٍ.. كانتْ تعدلُ عندَهُ خمسينَ مصحفاً منْ هذهِ المصاحفِ التي كانَ يحملُها أترابُهُ، المصحفُ! لقدْ حفِظَ ما فيهِ فما أفادَ شيئاً، وكثيرٌ منَ الشبانِ يحفظونَهُ فلا يحفلُ بهمْ أحدٌ"(43).

الشعورُ بالنقصِ والنقمةِ على بيئتِهِ ولّدا في نفسِهِ حافزاً للتفوقِ والتميزِ وربّما التعالي على الآخرِ، والذاتُ الساردةُ المقموعةُ منْ وسطِها الاجتماعيّ والقابعةُ في عتَمَةِ الشعورِ بالنقصِ تتعالى على عجزِها، وتتموضعُ في مكانٍ عالٍ يطلُّ على الآخرِ، وتتوهمُ التفوقَ والتميزَ عنِ الآخرِ.

وتدورُ عدسةُ الساردِ بعيداً عنِ الذاتِ ليصفَ جمْعاً منْ علماءِ قريتِهِ وصفاً إيجابيًّا، "للعلمِ في القرى ومدنِ الأقاليمِ جلالٌ ليسَ مثلُهُ في العاصمةِ ولا بيئتُها العلميةُ المختلفةُ"(44)، ثمَّ يقررُ أنَّهمْ تقاسمُوا فيما بينَهمْ إعجابَ الناسِ ومودتَهمْ، ويقفُ عندَ أحدِهمِ الذي لمْ يَفلحْ في الأزهرِ، وقنعَ برتبةِ كاتبٍ في المحكمةِ الشرعيةِ، وكيفَ منعَهُ الخطابةَ لصغرِ سنِّهِ(45).

وهذا حديثُ ذاتٍ ينطوي على تضخيمٍ للذاتِ، فمَا حاجةُ شيخٍ أزهريٍّ وكاتبٍ شرعيٍّ أنْ ينافسَ فتىً لمْ يشدَّ منَ العلمِ إلا أقلَّ القليلِ؟!.

وتقفُ الذاتُ الساردةُ مزهوةً بتقريراتٍ إنشائيةٍ لا تستندُ إلى حقائقِ الواقعِ، كحديثِهِ عنْ محصولِ علمِهِ في تلكَ الحقبةِ، إذْ يقررُ: "وكانَ صبيًّنا يختلفُ بينَ هؤلاءِ العلماءِ جميعاً، ويأخذُ عنْهُمْ جميعاً؛ حتى اجتمعَ لهُ منْ ذلكَ مقدارٌ منَ العلمِ ضخمٌ مضطربٌ متناقضٌ، ما أحسبُ إلا أنَّهُ عملَ عملاً غيرَ قليلٍ في تكوينِ عقلِهِ الذي لمْ يخلُ منِ اضطرابٍ واختلافٍ وتناقضٍ"(46).

يجهدُ طهَ حسين بإبرازِ "الأنا" في تمويهٍ سرديٍّ خياليٍّ، فكيفَ لرشفاتٍ منْ أطرافِ العلمِ، أنْ تُسمّى محصولاً ضخماً؟! وهوَ لمْ يدرسْ إلا أبياتاً معدودةً منْ ألفيةِ ابنِ مالكٍ، واستمعَ لدروسٍ عامةٍ في الوعظِ والعلمِ، ومنْ بدهياتِ العلمِ أنَّ اختلافَ مسائلِهِ يذكي العلمَ، وينيرُ البصيرةَ، ولا يحدثُ اضطراباً أبدًا، إلا إذا كانَ علماً ملفقاً وشذراتٍ ناقصةً، وهوَ ما كانَ لطهَ حسين في قريتِهِ فاضطربَ في علمِهِ، واضطربَ منهجُهُ في تلقي العلمِ وتقريرِهِ، وقدْ ذكرَ تلميذُهُ (أحمدُ زكي) شيئاً منْ تناقضِ علمِهِ، واضطرابِ منهجِهِ(47).

بلْ تبدو همتُهُ في تحصيلِ العلمِ في هذهِ الحقبةِ فاترةً، فهوَ يتحدثُ أنَّهُ حفظَ القرآنَ فنسيَهُ، ثمَّ جاءَ إلى درسِ الألفيةِ ففترَتْ همتُهُ عنْ إكمالِ حفظِها(48)؛ ممَّا يؤشرُ أنَّ ما حصّلَهُ لا يمكنُ أنْ يُسمّى علماً، فضلاً عنْ أنْ يكونَ "محصولاً ضخماً".

والأنا –ههنا– في بعضِ أحوالِها مستكينةٌ موجوعةٌ بأحزانِها الخاصةِ تتحدثُ عنْ موتِ أختِهِ الصغرى وجدِّهِ وجدتِهِ، ويقفُ عندَ مشهدِ احتضارِ أخيهِ الشابِّ الطبيبِ ألذي أمضّ العائلةَ بموتِهِ، و"منذُ ذلكَ اليومَ اتصلَتِ الأواصرُ بينَ الحزنِ وبينَ هذهِ الأسرةِ"(49).

والإطالةُ في رسمِ مشاهدِ الاحتضارِ يكشفُ عنْ تعلقِ الذاكرةِ، وتمسكِها بتلكَ الذكرياتِ، وكأنَّهُ فطامُ الذاكرةِ عنِ النسيانِ.

ولمْ تحظَ البيئةُ القريبةُ منْهُ كالأمِّ والأخواتِ باهتمامٍ؛ بلْ ذكرَهمْ عرَضاً، ولمْ يذكرْ أسماءَ أسرتِهِ، أوْ تأريخًا للحوادثِ –إلا حادثةَ موتِ أخيهِ الشابِ–، ثمَّ لا يعودُ إليهمْ إلا في مواضعَ قليلةٍ وبصورةٍ جماعيةٍ.

---

(42) الأيام (64/1).

(43) الأيام (71/1).

(44) الأيام (88/1).

(45) الأيام (82/1).

(46) الأيام (87/1).

(47) انظر، طه حسين، حياته وفكره في ضوء الإسلام، أنور الجندي (ص:161).

(48) الأيام (75/1).

(49) الأيام (125/1).

والملاحظُ قسوتُهُ في وصفِهِ لكثيرٍ منْ شخصياتِ النشأةِ في بيئتِهِ الريفيةِ، و"كراهيةُ المؤلفِ لشخصياتِهِ وحقدُهُ عليْها ونفورُهُ منْها"[50]، فشخصياتُ القريةِ –عنده– شخصياتٌ يسودُها الجهلُ والتخلفُ والكذبُ والإهمالُ وادّعاءُ الدينِ.

وهذهِ المرحلةُ استغرقت حيزاً أقلّ في الكتاب إذا ما قورنَتْ بغيرِها[51]، ولعلّ بُعدَ العهدِ بينَ زمنِ الكتابةِ ومرحلةِ الطفولةِ، يصيبُ الذاكرةَ بشيءٍ منَ الضعفِ؛ لذا نجدُ طهَ حسين يرددُ عبارةَ "لا يذكرُ.. لكنَّهُ يحاولُ أنْ يتذكرَ فلا يظفرُ منْ ذلكَ بشيءٍ"[52]، ويقررُ الدارسونَ أنّ "أكثرَ ما ينساهُ الإنسانُ ما يقعُ لهُ في مرحلةِ الطفولةِ"[53]، فالإنسانُ ضحيةُ الذاكرةِ الضعيفةِ التي قد تُصيبُهُ بالخذلانِ في بعضِ المواضعِ، وتُمسكُ عنِ الاستدرارِ في مواطنِ التذكرِ.

المبحث الرابع: الأنا والآخرُ في القاهرةِ (الأزهر/الجامعة المصرية)

هذهِ المرحلةُ ذاتُ تأثيرٍ كبيرٍ في نضوجِ "الأنا" عندَ طهَ حسين، وتشكلُ الذاتَ وبناءَ فلسفةٍ منَ الناسِ والحياةِ، وهيَ مرحلةٌ خصبةٌ جداً في حياتِهِ وتكوينِهِ؛ لذا ينعتُها بـــ "أحبّ أطوارِ حياتِهِ تلكَ إليْهِ وآثرها عندَهُ"[54].

تنفتحُ المرحلةُ الثانيةُ على تحسسِ المكانِ ووصفِهِ وصفاً مفصلاً، ويركزُ فيهِ على شقائِهِ ووضاعتِهِ، ويبرزُ ذلكَ في قرقرةِ الشيشةِ، وصخبِ المكانِ، والطريقِ الضيقةِ القذرةِ، والروائحِ المنكرةِ، وأصواتٍ مختلطةٍ مصطخبةٍ، تصورُ البؤسَ، وتَبينُ عن الضُرِّ وتُلْحُّ في السؤالِ[55]، وهيَ بيئةُ أحياءِ القاهرةِ القديمةِ في ذلكَ العهدِ، وهوَ استباقٌ بالحديثِ عنْ شقاءِ الأنا في هذهِ البيئةِ القاهريةِ الجديدةِ.

ويتضاعفُ شقاءُ الذاتِ بهذا المكانِ البائسِ، منْ خارجِهِ وداخلِهِ، فأثاثُ غرفتِهِ "تُلقى إليهِ وسادةٌ يضعُ عليْها رأسُهُ ولحافٌ يلتفُّ بهِ"[56].

والذاتُ معذبةٌ بالوحدةِ المركبةِ، وتبرزُ منْ جديدٍ آفةُ العمى؛ لتعذبَهُ بهذهِ الوحدةِ القاسيةِ، فقدْ "كانَ يشعرُ فيها بالغربةِ شعوراً قاسياً... كانَ يعيشُ فيها غريباً عنِ الناسِ، وغريباً عنِ الأشياءِ، وضائقاً حتى بذلكَ الهواءِ الثقيلِ الذي كانَ يتنفّسَهُ، فلا يجدُ فيهِ راحةً ولا حياةً؛ وإنَّما كانَ يجدُ فيهِ ألماً وثقلاً"[57].

وهوَ يصورُ حالَهُ بوصفٍ ينطوي على الكثيرِ منَ المرارةِ، فقدْ كانَ "مشرداً، حائرَ النفسِ، مضطربَ الخطى، ممتلئَ القلبِ بهذهِ الحيرةِ المضلةِ الباهظةِ التي تُفسدُ على المرءِ أمرَهُ، وتجعلُهُ يتقدمُ أمامَهُ على غيرِ هدىً في طريقِهِ الماديةِ وحدَها، بلْ على غيرِ هدىً في طريقِهِ المعنويةِ أيضًا"[58].

ونظرًا لآفتِهِ كانَ يشعرُ بالعجزِ وحاجتِهِ إلى الغيرِ دائماً، فأخوهُ الشيخُ "يجذبُهُ في غيرِ رفقٍ، ويمضي إلى مجلسٍ آخرَ، "فيضعهُ فيهِ كما **يضعُ المتاعَ وينصرفُ عنْهُ**"[59].

---

[50] تطور الرواية العربية (ص:314).

[51] تعادل 140 ص مقابل 349 ص لمرحلتي القاهرة وفرنسا.

[52] انظر، الأيام (1/1–15).

[53] انظر، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، يحيى إبراهيم عبد الدايم (ص:7).

[54] الأيام (15/2).

[55] الأيام (3،4/2).

[56] الأيام (7/2).

[57] الأيام (15/2).

[58] الأيام (15/2).

[59] الأيام (22/2).

مازالَ ذاك الصبيُّ الأعمى الذي يوضعُ كالمتاعِ، وتأملْ تبرّمَهُ وغيظَهُ منْ رؤيةِ الآخرينَ إليْهِ؛ ممَّا أشعرَهُ بأنّهُ لا يعدو أنْ يكونَ متاعاً يخلو منَ الإحساسِ الإنسانيِّ، ونقده للبيئةِ حولَهُ في تعاملِها معَ كفيفٍ مثلِهِ، وهيَ بداياتٌ تشي بعدمِ الرضا، وكأنَّ حياتَهُ في بداياتِ القاهرةِ تعميقٌ لحزنِهِ ووحدتِهِ في القريةِ، وهذا سيدفعُهُ لمزيدٍ منَ التأملِ الناقدِ لمَا حولَهُ وما عليْهِ مجتمعُهُ؛ إذْ "كانَتْ هذهِ الحياةُ شاقةً على الصبيِّ، وعلى أخيهِ معاً.. وكانَتْ وحدتُهُ بعدَ درسِ النحوِ، قدْ ثقلَتْ عليهِ حتى لمْ يكنْ يستطيعُ لها احتمالاً"[60].

وهذهِ الوحدةُ المعذبةُ لغلامٍ ريفيٍّ سجنٌ في آفتِهِ، وفقدُ القدرةِ على التواصلِ معَ محيطِهِ إلا مستعيناً بآخرَ، تختلطُ بشعورِ الحرمانِ الذي كانَ يتوقُ فيهِ إلى مشاركةِ أخيهِ وزملائهِ شيئاً منْ حوارِهِمْ ونوادرِهِمْ وشايهِمْ، "فقدْ كانَ هوَ أيضًا كلِفًا بالشاي، وشعرَ بالحاجةِ إلى أنْ يشربَهُ مصبحاً وممسيًا...؛ ولكنّهُ **حُرِمَ** هذا **كلَّهُ**"[61].

ولعلّ البيئةَ تعمقُ فيهِ هذا الإحساسَ بالوحدةِ والحرمانِ، إذْ "لمْ تكنِ العاهةُ بمفردِها هيَ المساهمةُ في تحقيقِ انطوائهِ ضمنَ عالمِهِ الضيقِ المخيفِ..؛ بلْ إنَّ للآخرينَ المحيطينَ بهِ أيضاً دوراً في تحقيقِهِ لمْ يقلَّ فعاليةً عنْ دورِ الأولى؛ بلْ ربّما تفوقُ عليْهِ"[62].

فهوَ الزمنُ الريفيُّ يمتدُّ في المكانِ القاهريِّ، فيحاصرُهُ بالحرمانِ والإهمالِ، فلا غرْوَ أنْ يرى عبدُ المحسنِ بدر سيرةَ "الأيام" "تعبيراً عنْ حرمانِهِ في طفولتِهِ وصباهُ"[63]، وما زالَتِ الأنا ذاتُ أحلامٍ طفوليةٍ تفرحُ للأشياءِ البسيطةِ التي تُدنيها منْ أحلامِها، كانتسابِهِ للأزهرِ يستدعي هواءَ الأزهرِ البليلِ ذكرياتٍ شهيةً عندَهُ، "كانَتْ تلكَ القبلاتُ تُنعشُ قلبَهُ، وتُشيعُ في نفسِهِ أمناً وأمَلاً وحَناناً، وكانَ ذلكَ النسيمُ الذي كانَ يتلقاهُ في صحنِ الأزهرِ، ويشيعُ في نفسِهِ هذا كلِّهِ، ويردُّهُ إلى الراحةِ بعدَ التعبِ، وإلى الهدوءِ بعدَ الاضطرابِ، وإلى الابتسامِ بعدَ العبوسِ"[64].

وتحملُ الذاتُ شغفًا بالمعرفةِ ولذةَ الاكتشافِ؛ "إنَّما هيَ نفسُهُ تتفتحُ منْ جميعِ أنحائِها، وقلبُهُ يتشوقُ منْ جميعِ أقطارِهِ ليتلقى.. شيئاً لمْ يكنْ يعرفُهُ؛ ولكنّهُ كانَ يحبُّهُ ويُدفعُ إليهِ دفعاً، طالمَا سمعُ اسمُهُ، وأرادَ أنْ يعرفَ ما وراءَ هذا الاسمِ وهوَ العِلمُ"[65].

"وأقبلَ إلى القاهرةِ وإلى الأزهرِ يريدُ أنْ يلقي نفسَهُ في هذا البحرِ؛ فيشربَ منْهُ ما شاءَ اللهُ لهُ أنْ يشربَ، ثمَّ يموتَ فيهِ غرقًا..."[66].

إنّهُ بدايةُ الانتصارِ على الحرمانِ والتخلفِ والإهمالِ الذي شقيَ بهِ، وفرَّ منْ مكانِهِ الأولِ رجاءً في التحررِ والانعتاقِ منْ زمنِهِ الريفيِّ، ويرى بأنّهُ العلمُ طريقُهُ نحوَ الانتصارِ على عاهتِهِ وقسوةِ البيئةِ نحوَهُ، ويمكنُ تفسيرُ هذا الاندفاعِ نحوَ المعرفةِ كصورةٍ منْ صورِ "علاجِ النواقصِ الفرديةِ عبرَ عمليةِ تعويضٍ عنْ حالاتِ الإحباطِ"[67].

هذهِ البيئةُ التي ترى العَمَى ولا ترى الأعمى، فهيَ على عمىً اجتماعيٍّ، عندَما تعرفُ الإنسانَ بآفتِهِ، فهو يذكر كيف نُوديَ عليه: "أقبلْ يا أعمى" فتحَ اللهُ عليْكَ يا أعمى"[68]، وهوَ "قدْ تعوّدَ منْ أهلِهِ كثيراً منَ الرفقِ بهِ، وتجنباً لذكرِ هذهِ الآفةِ بمحضرِهِ"[69].

---

[60] الأيام (104/2).

[61] الأيام (33/2).

[62] الانطواء النفسي عند طه حسين، فؤاد المرعي (ص:162).

[63] تطور الرواية العربية الحديثة، بدر ص:307).

[64] الأيام (16/2).

[65] الأيام (16/2).

[66] الأيام (17/2).

[67] السيرة الذاتية في النقد العربي الحديث والمعاصر- مقاربة في نقد النقد، عبدالله توفيقي (ص:88).

[68] الأيام (102/2،101).

[69] الأيام (102/2).

ويبدو أنّ عمّالَ الأزهرِ لمْ يكونوا في حرجٍ وهمْ ينادونَ على المكفوفينَ بهذهِ الآفةِ، وهوَ تقليدٌ لا إنسانيٌّ درَجوا عليْهِ؛ لذا لمْ نرَ أيَّ استنكارٍ منْ أخي طهَ حسين على ذلكَ، ونرى طهَ حسينٍ يستثمرُ هذهِ الحادثةَ ليعلنَ أنّهُ "انصرفَ راضياً عنِ امتحانِهِ، ساخطاً على ممتحنيهِ، محتقراً لهُمْ"[70].

وهذا أولُ تجربةٍ معَ عالمِ الأزهرِ الذي يذكرُهُ بنعلِ سيدنا الغليظِ، فيتخذُ عينَ الموقفِ منَ العالمِ الجديدِ/القديمِ، فيخرجُ منَ التجربةِ الأولى راضياً عنْ نفسِهِ، ساخطاً على غيرِهِ.

ويستطردُ في السيرةِ الغيريةِ؛ ليصفَ كلَّ ما حولَهُ منْ مكانٍ وإنسانٍ وفضاءٍ، كالحاجِّ فيروزَ، والحاجِّ عليٍّ الرزاز السبعيني، وصاحبِ الغرفةِ اليمنى الذي قضى وقتاً طويلاً ولمْ يتقدّمْ للامتحانِ لاعتقادِهِ أنَّ الشهاداتِ في الأزهرِ لا تنالُ بالذكاءِ والبراعةِ، وإنَّما تنالُ بالحظِّ والمصادفةِ، وشابٍ ضيقِ العقلِ نحيفِ الصوتِ، وآخرَ يتكلفُ التقوى والورعَ، وهوَ أشدُّهم تتبعاً لعيوبِ الناسِ لا يتحرجُ منْ كلمةٍ نابيةٍ، وثالثٍ: كانَ إقبالُهُ على الدرسِ ضئيلاً جداً؛ وكانَ ذكاؤهُ أضألَ منْ إقبالِهِ على الدرسِ، صاحبِ إغراقٍ في اللذةِ، وتهالكٍ عليها.. ضيقِ العقلِ، لم يأْذنِ اللهُ للونٍ منْ ألوانِ العلمِ أنْ يستقرَّ في رأسِهِ..."[71].

وألفاظُهُ في وصفِ الغيرِ قاسيةٌ حادةٌ يكررُ عباراتِ عيبِهم ويضعُها في سياقٍ ساخرٍ، وتتفقُ شخصياتُهُ في الغباءِ والبلادةِ والإخفاقِ في تحصيلِ شهادةِ العالميةِ، واتخاذُهُ موقفاً واحداً وهوَ قسوتُهُ على شخصياتِهِ، وهوَ يتخذُ منْ هذهِ الشخصياتِ مرآةً للذاتِ في إخفاقِها في شهادةِ الأزهرِ، واستباقاً ينبئُ بمرارةِ الموقفِ منَ الأزهرِ، ثمَّ يعمدُ إلى تقديمِ هذهِ الشخصياتِ دفعةً واحدةً، "وبصورةٍ مباشرةٍ...، ثمَّ ينساها ولا يعودُ إليها"[72].

ويعرضُ رأيَهُ في الأزهرِ على لسانِ غيرِهِ، وينحلُ الرأيَ غيرَ صاحبِهِ، ويكررُ تقنيةَ توظيفِ الآخرِ مرآةً للذاتِ، "فقدْ كانَ هؤلاءِ الشبانُ يضيقونَ بكتبِ الأزهرِ ضيقاً شديداً، يتأثرونَ في ذلكَ برأيِ أستاذِهم الإمامِ في كتبِ الأزهرِ ومناهجِهِ"[73].

وتنتفخُ الذاتُ مرةً أخرى في الأزهرِ وهوَ لمْ يذكرْ تقدمَهُ لعلمٍ ولا تحصيلِهِ لشيءٍ منْهُ، ثمْ يأخذُ يتباهى بمناقشةِ الأساتذةِ والشيوخِ في دروسِ البلاغةِ: "فأخذَ الغلامُ يناقشُ الأستاذَ في بعضِ ما كانَ يقولُهُ كدأبِهِ معَ أساتذتِهِ جميعاً؛

ولكنَّ الشيخَ ردَّ عليْهِ فأفحمَهُ وألجمَهُ وملأَ قلبَهَ غيظًا وازدراءً وخجلًا...، ومنْ ذلكَ الوقتِ سقطَ الشيخُ في نفسِ الغلامِ وبُغّضَ إليهِ"[74]، ثمَّ يتحولُ الشيخُ إلى موضوعٍ منْ موضوعاتِ الفكاهةِ التي كانَ الغلامُ **يلهو بها**[75].

ويتحدثُ عنْ درسِ تنكيرِ المبتدأِ في الآيةِ "ورضوانٌ منَ اللهِ أكبرُ" فيقولُ: "..فجعلَ يعللُ معَ المؤلفِ والشارحِ والمحشي، والمقررُ تنكيرُ الرضوانِ بكلامٍ لمْ يعجبِ الغلامُ، ولمْ يقعْ في نفسِهِ، ولمْ يستطعِ الغلامَ أنْ يصبرَ على ما يسمعُ، فأخذَ يجادلُ الشيخَ.."[76].

وتوظيفُ ضميرِ "الهو" والعودةُ إلى اللهوِ والعبثُ بالآخرِ، استراتيجيةٌ سرديّةٌ عندَ طهَ حسين لإثباتِ الذاتِ، والانتقامِ منَ البيئةِ؛ إذْ يذكرُ أنَّهُ "كانَ صادقاً في ذلكَ أولَ الأمرِ، فلمّا أحسَّ الإنكارَ والازورارَ والمقاومةَ، تكلفَ وعاندَ وغلا في الشذوذِ"[77].

---

[70] الأيام (102/2).

[71] الأيام (41/2-70).

[72] تطور الرواية العربية (ص:315).

[73] الأيام (64/2).

[74] الأيام (77/2).

[75] الأيام (77/2).

[76] الأيام (79/2).

[77] الأيام (122/2).

وهذا يستحضرُ مشهدَ عودتِهِ لقريتِهِ بعدَ عامٍ، وكيفَ وجدَ ازوراراً منْ أهلِهِ وقريتِهِ عنْهُ، فقامَ بالسخريةِ والاعتراضِ للانتقامِ منْ بيئتِهِ، "فقدِ انتقمَ الصبيُّ لنفسِهِ، وخرجَ منْ عزلتِهِ، وشُغلَ الناسُ في القريةِ والمدينةِ بالحديثِ عنْهُ والتفكيرِ فيهِ، فلمْ يهملْهُ أبوهُ، ولمْ تعرضْ عنْهُ أمُّهُ وإخوتُهُ، ولمْ تقُمِ الصلةُ بينَهمْ وبينَهُ على الرحمةِ والإشفاقِ؛ بلْ على شيءٍ أكثرَ، وآثرَ على الصبيِّ منَ الرحمةِ والإشفاقِ"[78].

وتجدُ حاسة "التأملِ الناقدِ" مناخاً مناسباً في أجواءِ الأزهرِ القائمة على "الفنقلةِ"[79]، وتستمتعُ "الأنا" بهذا الجدلِ العقليِّ المشوبِ بشيءٍ منَ العلمِ، و"أخذَ يُحسنُ "الفنقلةَ" التي كانَ يتنافسُ فيها البارعونَ منْ طلابِ العلمِ في الأزهرِ"[80] فهوَ ميدانُهُ، وهوَ يُقيمُ هذا على توليدِ النقائضِ، وتقليبِ الكلامِ؛ ليستخرجَ منْهُ صوراً مناقضةً لما يستمعُ إليهِ، فيندفعُ بهذا الصورِ الجديدةِ يجادلُ وينقضُ بها صورَ الكلامِ القديمِ.

وقدْ كررَ في أكثرَ منْ موضعٍ مناكفتَهُ لشيوخِهِ، ثمَّ يذكرُ ردَّهمْ عليهِ بعباراتٍ قاسيةٍ، تنبئُ ضجرَهمْ منهُ ومنْ تربصهِ بهمْ[81]، فتتجمعُ في مرآةِ الأنا صورةٌ مزريةٌ وقاسيةٌ، وحملةٌ عنيفةٌ عنِ الأزهرِ لا تهدأُ ألبته؛ بلْ تأخذُ فورةُ موجاتٍ متتابعةٍ منَ النقدِ والسخريةِ، فهوَ يتحدثُ عنْ سخريةِ الطلابِ منْ مشايخِهمْ، والتنافسِ والوشايةِ بينَ علماءِ الأزهرِ وشيوعِ الغيبةِ والنميمةِ، ثمَّ يقولُ: "كانَ صاحبُنا سيّءَ الرأيِّ في العلماءِ والطلابِ جميعاً"[82].

ضَجِرَ وفترَتْ همتُهُ ولمْ يحصلْ من العلمِ شيئاً في سنتِهِ الثالثةِ، "فلمّا عادَ إلى الأزهرِ منْ قابلٍ عادَ إليهِ ضيقُ النفسِ بهِ شديدُ الزهدِ بهِ"[83].

وينصرفُ طه حسين عنِ العلمِ الشرعيِّ الجادِّ؛ إذْ تنحرفُ لديهِ بوصلةُ العلمِ، "فقدْ كانَتْ ثقافتُهُ في العلومِ الإسلاميةِ قاصرةً؛ بحيثُ لمْ يمتكنْ منْ تكوينِ فكرةٍ كاملةٍ عنِ الإسلامِ"[84] لكيْ ينصرفَ إلى دروسِ الأدبِ معَ الشيخِ المرصفيِّ، ويزدادَ بهِ بعداً عنِ الأزهرِ ونقمةً عليهِ، فحضورُهُ هوَ وزميلاه: (الزياتِ والزناتي) لدرسِ الأزهرِ "إنَّما كانوا يسمعونَ لهُ ليضحكوا منْهُ؛ وليقيدوا عليهِ أغلاطَهُ، وكانَتْ كثيرةً ولاسيما حينَ كانَ يعرضُ للغةِ والأدبِ؛ وليشنعوا عليهِ بهذهِ الأغلاطِ بعدَ الدرسِ، وليعرضوا هذهِ الأغلاطَ منَ الغدِ على شيخِهمِ المرصفيِّ، فيقدّموا إليهِ مادةً جديدةً للتشنيعِ على أساتذتِهِ وزملائِهِ منَ الشيوخِ"[85].

ويتخذُ منَ الشيخِ المرصفيِّ مرآةً للذاتِ فيقولُ: "ولمْ يكنْ للشيخِ حديثٌ إلى تلاميذِهِ إذا تجاوزَ درسَ الأدبِ إلا الأزهرَ وشيوخَهُ وسوءَ مناهجِ التعليمِ فيهِ، وكانَ الشيخُ قاسياً إذا طرق هذا الموضوعَ، وكانَ نقدُهُ لاذعاً، وتشنيعُهُ على أساتذتِهِ وزملائهِ أليماً حقاً"[86].

وهوَ ما زالَ يعيشُ في ظلِّ مواقفِ الآخرينَ، ويتخذُ منْهمْ مرآةً للذاتِ، كمَا اتخذَ منْ ضميرِ "الهو" مرآةً للأنا.

وفي أجواءِ الضيقِ بالأزهرِ وبيئتِهِ، تنعطفُ الأنا الساردةُ نحوَ بيئةٍ جديدةٍ بدونِ تقديمٍ ولا تمهيدٍ، وهيَ على النقيضِ منْ بيئةِ العمائمِ والبسطاءِ، إنَّها بيئةُ المطربشينَ والأغنياءَ، "وفى مكتبِ مديرِ الجريدةِ **ظفرَ الفتى بشيءٍ طالمَا تمنّاه**، وهوَ أنْ يتصلَ ببيئةِ الطرابيشِ بعدَ أنْ

---

[78] الأيام (128/2).

[79] صورة من صور الجدل العلمي ، وهي منحوتةٌ، من قولهم (فإنْ قيلَ، قلنا). وهذا شاع في عصر المتأخرين حيث الحواشي والاعتراضات. انظر، ملتقى أهل الحديث www.ahlalhdeeth.com.

[80] الأيام (129/2).

[81] الأيام (153/2).

[82] الأيام (133/2).

[83] الأيام (143/2).

[84] طه حسين، حياته وفكره في ضوء الإسلام، أنور الجندي (ص:22).

[85] الأيام (162/2).

[86] الأيام (161/2).

سئمَ بيئةَ العمائمِ؛ ولكنّهُ اتصلَ منْ بيئةِ الطرابيشِ بأرقاها منزلةً وأثراها ثراءً، وكانَ وهوَ فقيرُ متوسطِ الحالِ في أسرتِهِ سيءَ الحالِ جداً إذا قامَ في القاهرةِ، فأتاحَ لهُ ذلكَ أنْ يفكرَ فيما يكونُ منْ هذهِ الفروقِ الحائلةِ بينَ الأغنياءِ المترفينَ والفقراءِ البائسين"[87].

وهذا حدثٌ ذو أهميّةٍ عاليةٍ في حياتِهِ، وبهِ تبدأُ تنعطفُ حياةُ طهَ حسين نحوَ بيئةٍ جديدةٍ تشتهيها الأنا الساردةُ، ويعبرُ عنْ رضاهُ بعبارةٍ صريحةٍ دالةٍ على نزوعِهِ الشديدِ نحو البيئةِ الجديدةِ بكلِّ مكوّناتِها، "**ظفرَ الفتى بشيءٍ طالمَا تمنّاهُ**"، ولمْ يمرَّ منْهُ حديثٌ أنّهُ تمنّى هذهِ الأمنيةَ، إلا إذا كانَتْ أمنيةً مكبوتةً منذُ صغرِهِ عندمَا التقى بذاكَ المطربشِ في قريتِهِ، أوْ عندمَا قَدِمَ للقاهرةِ فعلمَ الفرقَ بينَ الطائفتيْنِ، ويبدو أنَّ أهلَ الطرابيشِ كانَ لهمْ حظوةً عندَ الناسِ أكثرَ منَ المعمّمِّينَ، كمَا يسردُ أحمدُ أمين جملةً منَ الحوادثِ تشير إلى هذا[88].

ويطوي الحديثُ على قصةِ تعرفِهِ إلى هذهِ البيئةِ، ويدخلُ بنا فجأةً إلى هذهِ البيئةِ وتقاليدِها، "ومنْ ذلكَ الوقتِ أيضًا سلكَ الفتى في حياتِهِ طريقاً لمْ يكنْ يقدِّرُ أنْ سيُتاحَ لهُ سلوكُها، فاتّصلَ بالجريدةِ ومديرِها الأستاذِ لطفى السيد، وقويَتِ الصلةُ بينَهما حتّى كانَ يلقاهُ مراتٍ في كلِّ أسبوعٍ، وكانَ يلقى عندَهُ منْ شيوخِ المطربشينَ وشبابِهمْ قومًا كثيرينَ، وكانَتْ أحاديثُ الأستاذِ وزائريهِ تفتحُ للفتى أبواباً منَ العلمِ والمعرفةِ لمْ تكنْ تخطرُ لهُ ببالٍ، ولمْ يكنْ يقدرُ وجودَها فضلاً عنِ اتصالِهِ بها منْ قريبٍ أوْ بعيدٍ"[89].

ويتضحُ ميلُ طهَ حسين" إلى أصحابِ الطرابيشِ الأكثرَ دنيويةً والأكثرَ حداثةً؛ لكنّهُ ليسَ متأكداً أنّهُ يستطيعُ الانضمامَ إليهِمْ.."[90].

ولمْ يذكرْ طهَ حسين فنونَ العلمِ والمعرفةِ التي وجدَها عندَ لطفي السيد وزائريهِ، ولمْ يقدرْ وجودَها في مكانٍ آخرَ، وربّما هيَ الثقافةُ الحديثةُ التي قامَتْ على نقدِ كلِّ شيءٍ محافظٍ، ويذكرُ أنورُ الجندي نقلاً عنْ طهَ حسين أنَّ لطفي السيد "فتحَ لهُ بابَ التفكيرِ الأوروبيِّ الحديث"[91]، وقدْ عُرِفَ لطفي السيد بقيادةِ تيارِ التغريبِ في مصرَ، ورأسٌ منْ رؤوسِ حزبِ الأمةِ –حزبِ الإقطاعيينَ والأغنياءِ الموالينَ للاحتلالِ الانجليزيِّ–[92].

ويبدو أثرُ لطفي السيد مبكراً في شخصيةِ طهَ حسين، وبدا ذلكَ جلياً في مقالةِ طه حسين حولَ الحجابِ سنةَ1911 أنَّ المرأةَ المسلمةَ لا بأسَ "لها أنْ تطرحَ النقابَ، وترفعَ الحجابَ، وتتمتعَ بلذاتِ الحياةِ كمَا يتمتعُ الرجلُ"[93].

وقدْ لقيَ منْ لطفي السيد رعايةً وتشجيعاً كمَا يستذكرُ طهَ حسين عنْ فضلِهِ عليْه، "وهو الذى كانَ كثيرًا ما يشجعُ الفتى فيتنبأُ لهُ مرةً بأنّهُ سيكونُ موضعُهُ منْ مصرَ موضعَ فولتير منْ فرنسا، ويقولُ لهُ مرةً أخرى: أنتَ أبو العلائنا، وأصبحَ الفتى كاتبًا بفضلِ هذيْنِ الرجلينِ: لطفي السيد، وعبدِ العزيزِ جاويش.."[94].

وباتَ مجلسُ لطفي السيد "يرى فيهِ مثلاً يتجاوزُ بهِ ضائقتَهُ، وتنفيساً عنْ عالمِهِ، الذي كانَ يراهُ محصوراً ومحاصراً بعالمٍ يكررُ نفسَهُ في الكتّابِ والأزهر"[95].

وبفضلِهما باتَ نقدُهُ للأزهرِ وللكتّابِ في عصرِهِ صورةً منْ صورِ إثباتِ الذاتِ، وتأكيدًا لحاسةِ الجدلِ العقليِّ التي يجدُ فيها متعتَهُ، وكانَ مراراً تحدوهُ هذهِ الرغبةُ في تأكيدِ الذاتِ والتبريزِ وإثارةِ الغيرِ.

---

(87) الأيام (173/2).

(88) منها رفض صاحب أحد الفنادق ضيافته لأنه من أهل العمائم، وكذلك تقديم عامل البريد أحد المطربشين عليه. انظر، حياتي (ص:226).

(89) الأيام (10/3).

(90) العمى في مرآة الترجمة الشخصية (طه حسين وقيد مهتا)، فدوى مالطي (ص:70).

(91) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره، أنور الجندي (ص:55).

(92) انظر، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين (105/1).

(93) طه حسين كما عرفه كتاب عصره (ص:190).

(94) الأيام (3/).

(95) الخطاب النقدي عند طه حسين، أحمد بو حسن (ص:25).

أمّا عبدُ العزيزِ جاويش فقدْ فتحَ لهُ أبوابَ مجلةِ الهدايةِ، وكتبَ مقالاً ينقدُ فيهِ تاريخَ آدابِ العربيةِ لجرجي زيدان، وقدْ نسبَ إليهِ طهَ حسين مغالتَهُ في نقدِ الأزهرِ والشيوخِ، ونقدُهُ "كانَ نقدًا محافظًا غالياً في المحافظةِ، إلا أن يعرضَ لشئونِ الأزهرِ، فهنالكَ كانَ يخرجُ حتى عنْ طورِ الاعتدالِ، ويغلو في العبثِ بالشيوخِ، ويجدُ التشجيعَ كلّ التشجيعِ على ذلكَ منَ الشيخِ عبدِ العزيزِ جاويش، وربّما وجدَ منْهُ إغراءً وحثّاً عليهِ"[96].

وعبدُ العزيزِ جاويش منَ الحزبِ الوطنيِّ المحافظِ -حزبِ الطبقةِ العامةِ- وكان ينادي أنْ ترتبطَ مصرَ بتركيا في ظلِّ الخلافةِ، ومنعَ جاويش طه حسين منَ الكتابةِ في "الهدايةِ" بعدَ مقالتِهِ حولَ الحجاب[97].

ويأتي التطورُ الثاني المهمُّ في حياتِهِ وهوَ دخولُهُ الجامعةَ المصريةَ، وهوَ ترسيخٌ لمرحلةِ اتصالِهِ ببيئةِ الطرابيشِ، وإذْ ينفتحُ على حياةٍ جديدةٍ، "وإذْ هوَ يجدُ للحياةِ طعمًا جديداً، وإذا هوَ يتصلُ ببيئةٍ جديدةٍ وبأساتذةٍ لا سبيلَ إلى الموازنةِ بينهمْ وبينَ أساتذتِهِ في الأزهرِ"[98].

وتبدأُ الأنا تبينُ سبيلَها، وتنهضُ أمامَها معالمُ الحياةِ الجديدةِ، وتكادُ تشرعُ في اتخاذِ قراراتٍ تغيرِ وجهةِ الحياةِ عندَها، ولكنَّها متوجسةٌ مترددةٌ، حتى تتمكنَ أقدامُها منَ الطريقِ الجديدِ، "الحقُّ أنَّ الفتى قدْ قطعَ الصلةَ بينَهُ وبينَ الأزهرِ في دخيلةِ نفسِهِ، وأعماقِ ضميرِهِ؛ ولكنّهُ ظلَّ مقيداً في السجلاتِ"[99].

وتأتي القطيعةُ الكاملةُ بعدَ إخفاقِهِ في امتحانِ الأزهرِ وتبريرِهِ ذلكَ، أنَّ الشيخَ الأكبرَ كانَ حريصاً على رسوبِهِ، وقدْ حثَّ رئيسَ اللجنةِ على ذلكَ، وتابعَهُ بنفسِهِ[100]، وهوَ تقريرٌ لا يخلو منْ فنتازيا ذاتيةٍ، فما شأنُ شيخِ الأزهرِ في رسوبِ طالبٍ أوْ نجاحِهِ؟![101].

وبذلكَ جُذتْ حبالُ طهَ معَ الأزهرِ، وتحررَ منَ الزمنِ الريفيِّ، بعدَ أنْ عثرَ على الذي تمنّاهُ طويلاً، وقدْ جاءَ تعويضاً عنْ إخفاقِهِ في الأزهرِ، وترى فدوى مالطي في تعليلِ انتقالِهِ للجامعةِ وتشبثِهِ بها: "رفضَ البطلُ الأدوارَ الاجتماعيةَ التقليديةَ المفروضةَ على الضريرِ، ويتجاوزُ هذا الرفضُ معَ رفضِ أيةِ محاولةٍ يحاولُهُ المجتمعُ؛ لكيْ يحصرَهُ أوْ يحبسَهُ في الدورِ الاجتماعيِّ للعميانِ"[102].

وبدتِ الجامعةُ في مرآةِ الأنا مقابلاً للأزهرِ وثقافتِهِ التقليديةِ، وتبدو المقارناتُ بينهما تميلُ دائماً للجامعةِ ومنهجِها وأساتذتِها: " وسمعَ الفتى لأولِ درسٍ منْ دروسِ الجامعةِ في الحضارةِ الإسلاميةِ فراعَهُ أولَ ما راعَهُ شيءٌ لمْ يكنْ لهُ بمثلِهِ عهدٌ في الأزهرِ، فهذا أحمدُ زكى بك يبدأُ الدرسَ بهذهِ الكلماتِ التي لمْ يسمعْها الفتى منْ قبلُ: أيُّها السادةُ أحييكُمْ بتحيةِ الإسلامِ، فأقولُ السلامُ عليكمْ ورحمةُ اللهِ"[103].. يسجلُ ملاحظاتٍ نفسيةً تكونُ مدخلاً لمفارقاتٍ أكبرَ وأعمقَ، وهيَ في حقيقتِها مفارقاتُ مراحلِ الأنا بينَ القريةِ والقاهرةِ والأزهرِ والجامعةِ، ويبدو الأزهرُ كئيباً متجهماً عندَه: "إنَّما كانَ الفتى يسمعُ في الأزهرِ كلاماً آخرَ لا يتجهُ بهِ الشيوخُ إلى الطلابِ، وإنّما يتجهونَ بهِ إلى اللهِ عزَّ وجلَ، فيحمدونَهُ ويثنونَ عليْهِ، ولا يحيي فيهِ الشيوخُ طلابَهمْ، وإنّما يصلُّونَ فيه على النبيِّ وعلى آلهِ وأصحابِهِ أجمعينَ !"[104].

---

(96) الأيام (10/3).

(97) طه حسين كما عرفه كتاب عصره (ص:190).

(98) الأيام (181/2).

(99) الأيام (182/2).

(100) الأيام (12/3).

(101) يذكر أحد الدارسين أن "الدكتور تقدم لامتحان الشهادة النهائية (العالمية)، ظنا أنه على شيء من العلم فلما جاء الامتحان وسئل ونوقش أخفق. ومن ذلك الوقت أخذ يحارب الأزهر" انظر، طه حسين، أنور الجندي (ص:23).

(102) العمى في مرآة الترجمة الشخصية (ص:71).

(103) الأيام (7/3).

(104) الأيام (7/3).

"كانَ الفتى يرى حياتَهُ في الجامعةِ عيداً متصلاً، كمَا كانَ يراها غيرُهُ منَ المصريينَ؛ ولكنّها كانَتْ بالقياسِ إليهِ عيداً تختلفُ فيهِ ألوانُ اللذةِ والغبطةِ والرضا والأملِ، كانَتْ تُخرجُهُ منْ بيئتِهِ تلك الضيقةِ المقلقةِ في الأزهرِ، وفي حوشِ عطا أوْ دربِ الجماميزِ إلى بيئةٍ أخرى واسعةٍ لا حدّ لسعتِها، فهيَ كانَتْ تُتيحُ لهُ أنْ يملأَ رئتيْهِ منَ الهواءِ الطلقِ حينَ يسعى إلى الجامعةِ، وحينَ يعودُ منْها، وأنْ يملأَ عقلَهُ منَ العلمِ الطلقِ.."[105].

ثمّ يتحدثُ عنْ أساتذتِهِ الأجانبِ حديثاً ملؤهُ الإعجابُ والمحبةُ والتقديرُ: "لكنْ عقلُهُ قدْ نأى عنْ بيئتِهِ هذهِ نأيًا تاماً، واتصلَ بأساتذتِهِ أولئكَ اتصالاً متيناً، فكلُّهمْ قدْ عرفَهُ، وكلُّهمْ **قدْ آثرَهُ بالحبّ والرفق والعطفِ، وكلُّهمْ قدْ أدناهُ منْ نفسِهِ**"[106].

ويبدو الحب والرفق –ههنا– تعويضاً عنْ حرمانِ البيئةِ (العلميِّ العاطفيِّ)، فانفصلَ شعوراً وعقلاً عنِ الأزهرِ وما يمثّلُهُ "فالأساتذةُ الأجانبُ استحالوا عندَهُ عقولاً تتعاملُ معَ عقولٍ، فخرجُوا عنْ أنْ يكونوا مفرداتِ صورةٍ ترسمُ"[107]، واستحالوا –في نظره– إنسانيينَ يمتلكونَ عاطفةً ترفقُ بآفتِهِ وتقدرُ شغفَهُ بالعلمِ، وقدْ تركَ أولئكَ الأساتذةُ أثرا بيّناً في موقفِهِ منْ قضايا الأدبِ العربيِ، والدينِ الإسلاميِّ، والمجتمعِ المصريِ"[108].

ولمْ يسلمْ بعضَ الأساتذةِ المصريينَ منْ تهكمِهِ، كالشيخِ المهديِّ، وقدْ نَسبَ إليهِ طهَ حسين ضياعَ الدرجةِ الممتازةِ عليهِ[109]، ويرى الأستاذُ بيومي أنّ هذا تجنٍّ لا مسوغَ لهُ، وقدْ "نوقشَ الدكتور في فرنسا في درجةٍ مماثلةٍ، وأخذَ منْ تقديرِها دونَ ما أخذَ منَ الجامعةِ المصريةِ! فهلْ كانَ الشيخُ المهديُّ هناك أيضًا"[110]، وأستاذُ الفلسفةِ المصريُّ (طنطاوي جوهري) ما نسبَ إليهِ عادته في الحديثِ والشرحِ، ومطّه للحروفِ بصورةٍ مضحكةٍ[111]، وكانَ "عليهِ أنْ يقرنَ هذا التهكمَ المتصلَ ببعضِ ما يشيرُ إلى فضلِ الأستاذِ في إنتاجِهِ العلميِّ المبتكرِ"[112].

ويثمرُ عطفُ المستشرقينَ ورعايتُهمْ عندَ طهَ حسين فيسجلُ الإنجازُ العلميُّ الأولُ في حياتِهِ، وتبتهجُ الأنا بحصولها على دكتوراه الجامعةِ المصريةِ، حتى أنّهُ "لمْ ينمِ الفتى منْ ليلتهِ تلك.. حالَ الابتهاجِ بينه وبين النوم، وهو يعلمُ أنّهُ ما أحسّ السعادةَ قط كما أحسّها في ذلكَ اليومِ وفيما تلاهُ منَ الأيامِ.." [113].

حالُهُ منَ الابتهاجِ الإنسانيِّ الرفيعِ بالتفوقِ، وقهرِ ظروفِ البيئةِ والانتصارِ على الإهمالِ، بحصولِهِ على أولِ إنجازٍ علميٍّ، يفوقُ في نظرِهِ إجازةَ الأزهرِ، وقدْ بدأَتْ خيالاتُ السفرِ إلى أوروبا تتراءَى أمامَ ناظريْهِ.

---

[105] الأيام (32/3).

[106] الأيام (34/3).

[107] طه حسين كما يعرفه كتاب عصره، سهير القلماوي (ص:41).

[108] انظر، على سبيل التمثيل (آراءه في نسبة مصر للعقل الأوروبي، وأن كل نتاج للعقل الإسلامي، مدين فيه للعقل اليوناني، وأن خطة نهضة مصر لا تقوم إلا بسيرنا سيرة الأوروبيين في خير حضارتهم وشرها وحلوها ومرها) مستقبل الثقافة في مصر (ضمن الأعمال الكاملة) (14/9، 26، 54).

[109] انظر، الأيام (13/3).

[110] شخصيات مظلومة في كتاب الأيام (ص:55).

[111] انظر، الأيام (41/3).

[112] شخصيات مظلومة في كتاب الأيام (ص:53).

[113] الأيام (61/3).

المبحثُ الخامسُ: مرايا الأنا والآخرِ في فرنسا

يتتابعُ التفتحُ والانعتاقُ منَ البيئةِ القديمةِ في سيرةِ الأنا عندَ طهَ حسين، وينتقلُ لدورةٍ منَ الصياغةِ الجديدةِ في أرضٍ نائيةٍ عنْ بيئتِهِ القديمةِ، ممّا يعني ضعفَ تأثيراتِ البيئةِ القديمةِ عليهِ، وسطوةَ البيئةِ الجديدةِ بمكانِها ومكوناتِها المعقدةِ.

ينفتحُ المشهدُ الأولُ في المرحلةِ الأوروبيةِ **بوقعِ الحياةِ الجديدةِ في نفسِهِ إذْ يذكر:** "استقبلَ الفتى حياتَهُ في مدينةِ مونبلييه، سعيداً بها إلى أقصى ما تبلغُ السعادةُ، راضياً عنْها كأحسنَ ما يكونُ الرضا، فقدْ حققَ أملاً لمْ يكنْ يقدرُ أنّهُ سيحققُهُ في يومٍ منَ الأيامِ"[114].

وهذا الوصفُ الذي ينطوي "ميلودراما نفسية"، وإطراءً على الحياةِ في أوروبا بهذهِ الحماسةِ، وهذا الانجرافِ العاطفيِّ نحوَ الآخرِ الأوروبيِّ، يؤكدُ الشوطَ البعيدَ الذي سارَ فيهِ طهَ حسين بعيداً عنْ نشأتِهِ الأولى في القريةِ والأزهرِ، وتحررَهُ الكاملَ منَ الحقبةِ الريفيةِ، وتستحضرُ هذهِ المشاهدُ الناصعةُ في نفسِهِ، مشاهدَ البؤسِ والحرمانِ في الزمنِ الريفيِّ، فيعمدُ إلى إجراءِ مقارنةٍ بينهمَا، "وكانَ يكفيهِ أنْ يفكرَ في صباهُ ذلكَ البائسِ الذى قضاهُ متردداً بينَ الأزهرِ وحوشِ عطا، تشقى نفسُهُ في الأزهرِ، ويشقى جسمُهُ ونفسُهُ في حوشِ عطا، حياةٌ ماديةٌ ضيقةٌ عسيرةٌ كأقسى ما يكونُ الضيقُ والعسرُ، وحياةٌ عقليةٌ مجدبةٌ فقيرةٌ كأشدِّ ما يكونُ الإجدابُ والفقرُ، ونفسٌ مضيعةٌ بينَ عُسرِ الحياةِ الماديةِ وفقرِ الحياةِ المعنويةِ"[115].

ويخرجُ منَ الموازنةِ بالابتهاجِ بالحياةِ الأوربيةِ الجديدةِ ابتهاجاً جارفاً يشبهُ حالةَ الانهيارِ الحضاريِّ أوِ الاستلابَ أمامَ الآخرِ، "ثمَّ يوازنُ بينَ حياتِهِ تلكَ وبينَ الحياةِ الجديدةِ التي أخذَ يحياها في هذهِ المدينةِ الفرنسيةِ، لا يحسُّ جوعاً ولا حرماناً، يُحملُ إليهِ فطورُهُ إذ أصبحَ ناعماً ليناً لا خشونةَ فيهِ ولا غَلَظ، فإذا جاءَتْ أوقاتُ الطعامِ في وسطِ النهارِ وفى آخرِهِ، وجدَ في اختلافِ الألوانِ وتنوعِها **ما يذكرُهُ** بطعامِهِ ذاكَ المتشابهِ حينَ كانَ يغمسُ خبزَهُ في عسلِهِ ذاكَ الأسودِ مصبحاً وممسياً، وحينَ كانَ يحبُّ أنْ يخففَ منْ طعامِهِ ذاكَ أحياناً، ويخالفُ عنْ حلاوتِهِ البغيضةِ إلى شيءٍ آخرَ، فلا يجدُ إلا ذلكَ الطعامَ الغليظَ الذي كانَ الأزهريونَ يعيشونَ عليهِ في تلكَ الأيامِ، فإذا أحبَّ أنْ يتفكّهَ فلا منصرفَ لهُ عن البليلةِ في الصباحِ، والتينِ الغارقِ في الماءِ إذا كانَ المساءُ أو الضحى..، وأينَ ذلكَ الطعامُ الغليظُ منْ هذهِ الألوانِ المترفةِ الرقيقةِ التي كانَتْ تعرضُ عليهِ في غدائِهِ وعشائِهِ في غيرِ تقتيرٍ ولا تضييقٍ، وفى كثيرٍ منْ إلحاحِ الخدمِ وأصحابِ الفندقِ عليهِ في أنْ يصيبَ منْها أكثرَ ممّا أصابَ؟!"[116].

مقارنةٌ حياتيةٌ تركزُ على حاجياتٍ بسيطةٍ في حياة الإنسانِ، ولعلّ الحرمانَ الذي أحاطَ بالأنا جعلَها تستكثرُ الطعامَ والشرابَ في "باريس".

وتتحركُ بؤرةُ السردِ نحوَ الآخرِ لترى بؤسَها في مرآةِ الاخرِ، إنّها المرآةُ التي أرتْهُ بؤسَ حياتِهِ الماضيةِ وبؤسَ مجتمعِهِ، إنّها المرآةُ الفاضحةُ لشقاءِ الواقعِ المصريِّ، وهيَ تذكرُنا بمرآةِ "رفاعةَ الطهطاوي" في رحلتِهِ للبحثِ عنِ النموذجِ معَ الفرقِ بينَ الرؤيتيْنِ، فهذهِ تركزُ على أمرِ المعاشِ، على عكسِ رحلةِ رفاعةَ التي كانَتْ تبحثُ عنْ نهضةِ مجتمعٍ، والمقارنةُ كانَتْ بينَ حضارتيْنِ ومجتمعيْنِ لا بيْنَ حياتيْنِ لشخصٍ واحدٍ، هذهِ المرآةُ هيَ صورةٌ منْ وعيهِ "بوعيهِ بأوضاعِهِ المعرفيةِ وأحوالِهِ الحضاريةِ في مرآةِ الحضارةِ الغربيةِ، وقدْ نتجَ منْ ذلكَ أنَّ كتابَ رفاعةَ لم يكنْ وصفاً لأوروبا وحدَها، أوْ وصفاً لأحوالِ التقدمِ الفرنسيِّ على وجهِ الخصوصِ، وإنّما كانَ وصفاً لأحوالِ الوطنِ العربيِّ في الوقتِ نفسِهِ، ومنْ ثمَّ وصفاً لأحوالِ التخلفِ"[117].

---

[114] الأيام (79/3).

[115] الأيام (79/3).

[116] الأيام (3/79–80).

[117] انظر، جابر عصفور الحياة 25/02/2004.

ويتضحُ تكوّنُ الصورةِ عنِ الآخرِ عبرَ المعايشةِ على أرضِهِ والاحتكاكِ بهِ، وليسَ عبرَ الخطابِ أوِ الخيالِ، فهيَ حقائقُ عنِ الآخرِ تكادُ تكونُ نهائيةً غيرَ قابلةٍ للتغييرِ بفعلِ تغيرِ الزمانِ والمكانِ؛ ولذا عاشَ طهَ حسين وفياً لهذا النموذجِ، ففي الوقتِ الذي تراجعَ محمدُ حسين هيكل، وتوفيقُ الحكيم عنِ الحماسِ للنموذجِ الاوروبيِّ "اللذيْنِ أبديَا تشككّهما في الغربِ الليبراليِّ بقيَ متشبثاً بالنموذجِ الليبراليِّ، وانتهى بهِ الأمرُ إلى صياغةِ النموذجِ الثقافيِّ لدولتِهِ الفكريةِ الذي استمدَّهُ منْ أوروبا الليبراليةِ"[118]، وهوَ لا يرى إلا نموذجيْنِ، أحدُهما: يتمثلُ في عالمِ القريةِ والأسرةِ والكتّاب والأزهرِ، وثانيهما: يتمثلُ في مدرسةِ الجريدةِ والجامعةِ المصريةِ والثقافةِ الأوروبيةِ، وواضحٌ النقمةُ على الأولِ وكلِّ ما يتعلقُ بهِ، والرضا عنِ الآخرِ وكلِّ ما يمثلُهُ.

ثمَّ تأتي المرأةُ الفرنسيةُ في حياتِهِ، وهيَ قمةُ التفتحِ والبهجةِ والرضا والافتتانِ الأبديِّ بالآخرِ شعوراً وفكراً، يقولُ طهَ حسين عنِ المرأةِ التي أخرجَتْهُ منْ شقاءِ سجنِهِ وعزلتِهِ: "سمعَ الفتى ذلكَ الصوتَ يقرأُ عليهِ شيئاً منْ شعرِ راسينَ ذاتَ يومٍ، فأحسَّ كأنّهُ خُلِقَ خلقاً جديداً، ومنذُ تلكَ الساعةِ التي سمعَ فيها ذلكَ الصوتَ لمْ يعرفِ اليأسَ إلى نفسِهِ سبيلاً، ولمْ يعرفِ الفتى أنّهُ أحبَّ الحياةَ قطُّ كمَا أحبَّها في الثامنِ عشرَ منْ شهرِ مايو في ذلكَ العامِ، ولمْ يعرفْ أنّهُ أقبلَ على الدرسِ كما أقبلَ عليهِ منذُ ذلكَ اليومِ"[119].

وبهذهِ المرأةِ الفرنسيةِ أكملَ نقصَهُ، وانتصرَ على آفتِهِ، وتفوّقَ على مجتمعِهِ، "قدْ عرفَ أنّهُ يستطيعُ أنْ يكونَ كغيرِهِ منَ الناسِ؛ بلْ خيراً منْ كثيرٍ منَ الناسِ يحيا حياةً فيها رضا وغبطةٌ، وفيها نعمةٌ وبهجةٌ" [120].

وتبرزُ بؤرةُ الأنا في وصفِ حياتِهِ في الجامعةِ في فرنسا، "كانَ يعزيهِ عنْ ذلكَ إقبالُهُ على الدرسِ وإحساسُهُ الانتفاعَ بهِ والتقدمَ فيهِ، وشعورُهُ بأنّهُ قدْ أخذَ يفهمُ الفرنسيةَ في غيرِ مشقةٍ ولا عسرٍ"[121].

"واستقامَتْ لهُ دروسُهُ في السوربونِ؛ فجعلَ يفهمُها ويسيغُها كمَا كانَ يفهمُها ويسيغُها زملاؤهُ الفرنسيونَ" [122].

رغمَ ما ذكرهُ طهَ حسين عنِ استقامةِ دروسِهِ، وتضلعِهِ في الفرنسيةِ كأهلِها، نجدُ بعضَ الأدباءِ نقدَ فهمَ طهَ حسين لجملةٍ منَ النصوصِ الأدبيةِ المترجمةِ منَ الفرنسيةِ إلى العربيةِ[123].

ولا يذكرُ أنّهُ ناقشَ أستاذاً فرنسياً أوْ أضحكَ عليهِ أحداً منْ زملائهِ؛ بلْ همْ جدٌّ لا عبثٌ فيهِ، وأخلصَ الثناءَ والإطراءَ، وأظهرَ إعجاباً ببعضِهِمِ (دور كايم) بلغَ حدَّ الفتنةِ[124].

وهوَ مآلُ التحولِ الكبيرِ الذي بدأَ بنقدِ الوالديْنِ والأسرةِ، والشيخِ والكتّابِ، ومجتمعِ القريةِ، وازدراءِ الأزهرَ وعلومِهِ وعلمائِهِ، ثمَّ يميلُ لبيئةِ الطرابيشِ، ويلتصقُ بالجامعةِ وأساتذتِها، ثمّ ينتهي بهِ بالفتنةِ بأوروبا وثقافتِها ونسائِها وتقاليدِها.

---

(118) الخطاب النقدي عند طه حسين (ص:45).

(119) الأيام (85/3).

(120) الأيام (106/3).

(121) الأيام (107/3).

(122) الأيام (107/3).

(123) انظر، معارك أدبية، محمد مندور (ص:25 وما بعدها)، ومعارك طه حسين الأدبية والفكرية، سامح كريم (ص:67 وما بعدها).

(124) انظر، الأيام (128/3،129).

المبحثُ السادسُ: الميثاقُ السيريُّ ولعبةُ السردِ

ترتبطُ السيرةُ الذاتيةُ بالواقعِ، وتبنى على تصريحِ الكاتبِ بأنّهُ يحكي حياتَهُ، ويعرضُ مسارَ أفكارِهِ ومشاعرِهِ، ذلكَ التصريحُ يسميهِ فيليب لوجون **بميثاق السيرةِ الذاتيةِ**، أوِ العقدِ السيري، فشرطُ وجودِ السيرةِ الذاتيةِ هوَ (الميثاقُ الأوتوبيوغرافي)؛ لتكونَ هناكَ سيرةٌ ذاتيةٌ، ويكونُ هناك تطابقٌ بينَ المؤلفِ والساردِ والشخصيةِ[125].

فهوَ مزيجٌ بينَ التأريخِ الفنيِّ للأنا والآخرِ، والأنا هيَ أيقونةُ السيرةِ الذاتيةِ، ومحورُ الفنِّ السيرِ ذاتيِّ، وليستِ السيرةُ الذاتيةُ سردًا عشوائيًا للأحداثِ ولا تذكرًا للماضي فحسب، إنّها عمليةٌ استكشافيةٌ واعيةٌ ومنظمةٌ لاستنطاقِ الذاتِ، وغربلةِ متعلقاتِها.

وما قدّمهُ طهَ حسين في سيرتِهِ، كانَ مثارَ تساؤلٍ بينَ الدارسينَ، حولَ أجناسيةِ "الأيامِ[126]"، فطهَ حسين يصرحُ أنّهُ لنْ يقولَ كلَّ شيءٍ؛ خوفاً منَ السخريةِ أوِ الشفقةِ، و"عنصرُ الاختيارِ ينفي عنِ الكتابِ كونُهُ مجردَ يومياتٍ أوْ مذكراتٍ، كمَا أنَّ خشيةَ المؤلفِ منَ الصراحةِ الكاملةِ ينفي عنِ الكتابِ كونُهُ مجردَ مجموعةٍ منَ الاعترافاتِ"[127].

ولذا أشكلَ على الدارسينَ تجنيسُ الأيامِ، وقدْ حرَصَ طهَ حسين على ترتيبِ السيرةِ، بإبرازِ قسوةِ بيئتِهِ وكفاحِهِ وانتصارِهِ على بيئتِهِ وآفتِهِ، ووجدَ مسوّغاً للانتقامِ منْ خصومِهِ وفي مقدمِهِمِ مؤسسةُ الأزهرِ، وجهدَ أنْ يبرزَ أنَّ العمى الفكريَّ والاجتماعيَّ والعاطفيَّ لمجتمعِهِ، أخطرُ منَ العمى الحقيقيِّ، وهذا دفعهُ للاختيارِ والغربلةِ المقصودةِ، ممّا أدّى إلى ترددِ السيرةِ بينَ الفنِّ والحقيقةِ؛ ولذا اتسمَتْ طريقةُ السردِ بالاستطرادِ أحيانًا، أوِ الاختزالِ والقفزِ عنِ الأحداثِ أحياناً أخرى، وهذا يمثّلُ صراعًا لضميرِ الساردِ، "بينَ الفنِّ والحقيقةِ، الفنُّ يريدُ أنْ يكونَ فناً تخييلياً يقومُ على مفارقةِ الواقعِ، والحقيقةُ نقلُ الواقعِ حرفيًّا"[128].

وقدْ طغَتِ الفنيةُ والتصويرُ القصصيُّ في الجزءينِ: (الأول والثاني)، أمّا الجزءُ الثالثُ فغلبَ عليهِ الترجمةُ الشخصيةُ والمذكراتُ التاريخيةُ، مستخدمًا الأسماءَ والحقائقَ والأمكنةَ بحرفيتِها وواقعيتِها المعهودةِ، إذْ يصرحُ بالأسماءِ تصريحاً واضحاً لا لبسَ فيهِ، فهوَ أقربُ إلى نمطِ المذكراتِ القائمةِ على سردِ الحقائقِ؛ ولذا يصدقُ رجاء النقاش في وصفِ كتابِ الأيامِ "إنّهُ تاريخٌ شعريٌّ عاطفيٌّ لطه حسين... وليسَ فيهِ تجاربُهُ العمليةُ، ومعاركهُ الواقعيةُ إلا القليلَ اليسيرَ.."[129].

فلمْ يتحدثْ عنْ معاركِهِ النقديةِ معَ أعلامِ عصرِهِ، كالرافعيِّ والعقادِ ومحمدِ حسين هيكل وزكي مبارك ومحمدِ مندور...وغيرِهِمْ؛ بلْ لمْ يأتِ على ذكرِ كتابِ "في الشعرِ الجاهليِّ"، والمعركةِ التي أثارَها[130]، ومرَّ مراً سريعًا على علاقتِهِ بالأحزابِ المصريةِ ودخولِهِ في حزبٍ وخروجِهِ منْهُ، وهوَ يذكرُ في إحدى مراجعاتِهِ جنايةَ السياسةِ عليْهِ: "غرقَ صاحبُنا في السياسةِ إلى أذنيْهِ..، وكانَ صاحبنا يرى الحيدةَ في ذلكَ الوقتِ جبنًا ونفاقًا"[131].

---

[125] السيرة الذاتية، فيليب لوجون (ص:24).

[126] انظر، أيام طه حسين بين الرواية والترجمة الذاتية، طه وادي (ص:40).

[127] تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (1870–1930)، عبد المحسن طه بدر (ص:302).

[128] أدب السيرة الذاتية، محمد عبد العال (ص:172).

[129] انظر، مقالة طه حسن والأحزاب السياسية، رجاء نقاش، طه حسين كما عرفه كتاب عصره (ص:191–210).

[130] انظر، تفصيلا في هذا الباب، "معارك طه حسين الأدبية والفكرية"، سامح كريم.

[131] الأيام (163/3).

ويرى الدارسونَ أنَّ طهَ حسين لمْ يكنْ منتمياً لأيِّ فكرٍ سياسيٍّ، ولا يحملُ رؤيةً سياسيةً واضحةً؛ لذا بدأَ حياتَهُ معَ حزبِ الأمةِ، ثمَّ معَ الأحرارِ الدستوريينَ، ثمَّ السعديينَ، ثمَّ الوفدَ، ولذا كانَ "ارتباطُهُ بالأحزابِ ارتباطَ صداقةٍ وتعاطفٍ لا عضويةً وقناعةً بالفكرِ السياسيِّ لتلكَ الأحزابِ"[132].

وكانَ يبحثُ عنِ الحمايةِ والحاضنةِ لأفكارِهِ، وقدْ درّتْ عليهِ تلكَ العلاقةُ بالأحزابِ بعضَ المناصبِ العليا، كعمادةِ الآدابِ، ورئاسةِ الجامعةِ المصريةِ، ووزارةِ المعارفِ، "ومنْ هنا نجدُ أنَّ طهَ حسين كانَ يتخذُ منَ الأحزابِ أوعيةً ووسائلَ ومظلاتٍ واقيةً لإذاعةِ آرائِهِ وأفكارِهِ"[133].

وغابَ الحديثُ عنْ والديْهِ وعائلتِهِ في الجزءَيْنِ: (الثاني والثالث)، كمَا غابَ الحديثُ عنْ مصرَ وكفاحِهِ الوطنيِّ، ولمْ يتحدثْ عنْ شيءٍ منْ إنجازاتِهِ، مثلَ: مجانيةِ التعليمِ، وفتحِ العديدِ منَ المدارسِ، وتعيينِ آلافِ المدرسينَ[134]، وكانَ تركيزُهُ شديداً على ذاتِهِ، والآخر في مرآةِ الذاتِ، وهذهِ نرجسيةٌ طغَتْ في كتاباتِ الكثيرينَ منْ كتّابِ العصرِ، "فقدْ حبسَ كثيرٌ منَ الروائيينَ أنفسِهِمْ في جحيمِ فرديتِهِمْ، إذْ تصوّروا أنَّ المهمةَ المناطةَ بأعمالِهِمْ هيَ التعبيرُ عنْ أفكارِهِمْ وعواطفِهِمْ منْ خلالِ "الأنا" النرجسيةِ المتضخمةِ"[135].

وشاعَ في سيرتِهِ شيءٌ منَ المراجعةِ الخافرةِ على ترددٍ منْهُ، إذْ يقولُ في مراجعةِ علاقتِهِ بالأزهرِ:" ثمَّ تمضى الأيامُ في إثرِ الأيامِ، وإذا هوَ قدْ نسيَ ما كتَبَ، وغفلَ عنْهُ بأشياءَ أخرى؛ ولكنَّ الناسَ لمْ ينسوهُ وإنّما حفظوهُ لهُ، وقيّدوهُ عليهِ، وأخذوهُ بهِ حينَ سنحتِ الفرصةُ، وطولُ اللسانِ هوَ الذى قطعَ الصلةَ قطعًا حاسمًا بينَ صاحبنِا وبينَ الأزهرِ، ودفعَهُ دفعًا إلى حياتِهِ التي أُتيحَتْ لهُ، وعرضه لسخطٍ أيِّ سخطٍ، وحزنٍ أيِّ حزنٍ، وعناءٍ أيِّ عناءٍ..."[136].

وفي معركتِهِ معَ الشيخِ رضا في مجلةِ الهدايةِ: "ولمْ تخلُ الهدايةُ منْ جدالٍ عنيفٍ دُفعَ إليهِ الفتى دفعًا، وكانَ خصمُهُ الشيخَ رشيدَ رضا، وقدْ أسرفَ الفتى على نفسِهِ وعلى الشيخِ رشيدٍ في ذلكَ الجدالِ، وكتبَ أحاديثَ استحى منْها فيما بعدُ حينَ ذُكرتْ لهُ، ولكنَّ الشيخَ عبدَ العزيزِ كانَ عنْها راضياً وبها كلفًا"[137].

يكشفُ الاقتباسُ المتقدمُ مراجعةً للنفسِ في حالةٍ منْ حالاتِ "لومِ الأنا"، و"عصرِ الذاكرةِ"، وينسبُ طهَ حسين ذلكَ إلى أنَّهُ كانَ يُدفعُ إليهِ دفعاً، وهوَ ممّا يخففُ منْ وخزِ الضميرِ، وإحدى غاياتِ كتابةِ السيرةِ "تصحيحُ مساراتِ أحداثِ حياةِ الكاتبِ الذي غالبًا ما يرتبطُ بالقيمِ الاجتماعيةِ...، وعلاجُ النواقصِ الفرديةِ عبرَ عمليةِ تعويضٍ عنْ حالاتِ الإحباطِ"[138].

ثمَّ نرى طهَ حسين يعودُ سريعاً فينقلبُ على مراجعتِهِ، ويؤكدُ عنادَهُ بقولِهِ: "لمْ ينكرْ منْ سيرتِهِ شيئاً، ولمْ يندمْ على فعلٍ فعلَهُ، أوْ قولٍ قالَهُ"[139].

والسخريةُ منَ الآخرِ بؤرةٌ سرديةٌ أتقنَ طهَ حسين توظيفَها، وتُعدُ سلاحاً منْ أمضى أسلحةِ الساردِ، وقناعاً منْ أقنعةِ النقدِ، وهيَ تُخفي لغةً عميقةً منَ الدلالاتِ أبعد منَ المعنى السطحيِّ.

---

(132) طه حسين كما عرفه كتاب عصره (ص:190).

(133) طه حسين، أنور الجندي (ص:113).

(134) انظر، ماذا يبقى من طه حسين، سامح كريم (ص:112).

(135) السيرة الذاتية في النقد العربي الحديث والمعاصر (ص:79).

(136) الأيام (11/3).

(137) الأيام (28/3).

(138) السيرة الذاتية في النقد العربي الحديث والمعاصر (ص:88).

(139) الأيام (164/3).

إنَّ السخريةَ منَ الآخرِ موّهَتْ مقاصدَ الساردِ، وانتقمَتْ منَ الآخرِ بأقلِّ مؤونةً، ووفّرَتْ جواً منَ الفنيةِ القائمةِ على خداعِ المنطقِ ومخالفةِ الميثاقِ السيريِّ، فقدِ "اكتشفَ أنّهُ يتفوقُ بالحجةِ والعقلِ –والسخريةِ أحيانًا– فأخذَ نفسَهُ بكثيرٍ منَ الجدِّ الصارمِ، وأشعلَ حاستَهُ الناقدةَ في كلِّ ما يسمعُ، وكلِّ ما يصلُ إليهِ منْ رأيٍ.."[140].

وطفحَ كتابُهُ بالقسوةِ على الشخصياتِ وكأنّهُ ينتقمُ منْها نصًا بعدَ أنْ عجزَ عنِ الانتقامِ الحقيقيِّ، وصمّمَ على "اتخاذِ موقفٍ موحدٍ منْ هذهِ الشخصياتِ وهوَ عدمُ التعاطفِ معَها وإهمالُها، ويظهرُ عدمُ تعاطفِهِ معَ شخصياتِهِ في قسوتِهِ عليْها، واقتصارهِ في رسمِهِ لها منْ جانبٍ واحدٍ هوَ جانبُها السيءُ[141]"؛ بلْ إنَّ "روحَ القسوةِ اللاذعةِ تشيعُ في كتابِ الأيامِ بأجزائهِ الثلاثةِ"[142].

ولعلَّ حدةَ طهَ حسين تفسرُ شيئًا منْ نقمتِهِ على بيئتِهِ، وانفصالِهِ الشعوريِّ عنْها، واستعلائِهِ على شخصياتِها، فهيَ لا تنتسبُ لعالمِهِ الجديدِ، فكلُّ شخصياتِ البيئةِ القديمةِ متهمةٌ عندَهُ، وشخصياتُ البيئةِ الجديدةِ مضيئةٌ ومشرقةٌ في سيرتِهِ، وقدْ كتبَ طهَ حسين سيرتَهُ وهوَ في عمرِ الشبابِ، ولمَّا تذهبُ حدتُهُ[143].

وتتمثلُ **لعبةُ الضمائرِ** عندَ طهَ حسين في استخدامِ أكثر منْ مرآةٍ للأنا الساردةِ: (الصبيِّ، والغلامِ والفتى، وصاحبِنا)، وتبرزُ الأنا في حديثٍ جانبيٍّ على هامشِ السيرةِ في حديثِ الساردِ معَ ابنتِهِ: "أليسَ الأمرُ كمَا أقولُ؟ ألستِ ترينَ أنَّ أباكِ خيرُ الرّجالِ وأكرمُهم؟ أليسَ ترين أنّهُ كانَ خيرَ الأطفالِ وأنبلَهمْ..."[144].

وقد خالف طه حسين الميثاق السيري في تطابق المؤلف والسارد والكائن السيري، فذلك "يدل على تعارض واضح يسبب خللاً سردياً يبتعد فيه السارد عن الشخصية، والمؤلف عنهما معاً بالضرورة، ولا يخفى أن وراء ذلك التخفي أو التقنع بضمير الغائب سبباً اجتماعياً يحاول الكاتب بفعل ضغطه أن يبرأ من عائدية الأفعال إليه"[145].

إنّ الفصلَ بينَ السّاردِ والصبيِّ موضوعُ السّردِ بوساطةِ ضميرِ الغائبِ يعفي السّاردَ منْ قيودِ السيرةِ الذاتيةِ، ويُعطيهِ الحريةَ في الترددِ بينَ الأنا والآخرِ، فيستطيعُ "أنْ يصوّرَ المواقفَ منْ خلالِ إحساسِ الصبيِّ، ويعلّقَ عليها منْ وجهةِ نظرِهِ، وأنْ يتركَ الصبيَّ أحيانًا كثيرةً أو يهملَهُ، ليتحدّثَ عنِ البيئةِ كما يحلو لـــهُ"[146].

إنَّ ضميرَ "الأنا" ينجزُ المهمةَ السرديةَ في الترددِ بينَ الأنا والآخرِ، ويمنحُ الحريةَ للساردِ للتحليلِ، وهوَ الأجدرُ منَ الناحيةِ الشعوريةِ في اللحظاتِ الحميمةِ نظراً لالتصاقِهِ بالذاتِ بشكلٍ حميميٍّ.

الخاتمةِ والنتائج:

- كتابُ الأيامِ عملٌ اقتحاميٌّ استطاعَ طهَ حسين منْ خلالِهِ أنْ يقتحمَ ساحةَ الأدبِ العربيِّ، ويغرسَ جنسًا أدبياً جديداً بهذا المضمونِ والشكلِ الفنيِّ الذي ظهرَ فيهِ؛ ولذا أخذَ هذا الموقعُ التأسيسيُّ في فنِّ "السيرةِ الذاتيةِ" في الأدبِ العربيِّ.
- تعدّتْ دوافعُ طهَ حسينٍ لكتابةِ سيرتِهِ ما بينَ الذاتيِّ الذي يتعلقُ بتأكيدِ الذاتِ، والتخلصِ منَ الهمومِ الثقالِ، ومنْها ما يتعلقُ بصراعِهِ معَ الآخرِ، فهوَ حلقةٌ منْ حلقاتِ هذا الصراعِ.

---

[140] طه حسين كما يعرفه كتاب عصره، كامل زهيري، (ص:41).

[141] تطور الرواية العربية (ص:313).

[142] شخصيات مظلومة في كتاب الأيام، محمد رجب بيومي (ص:52).

[143] كان يبلغ ستة وثلاثين عاما.

[144] الأيام (145/1).

[145] السيرة الذاتية، البوح والترميز والقهري، حاتم الصكر (ص:210).

[146] عندما تتكلم الذات، محمد الباردي (ص:23).

- رحلةُ طهَ حسينٍ في البحثِ عنِ النموذجِ وصورِ كفاحِهِ في الحياةِ، تكادُ تكونُ سلوكَ جيلٍ، مثّل طهَ حسين بعضَ أوجهِ التشابهِ في النشأةِ الريفيةِ والانتسابِ للأزهرِ والانفتاحِ على الفكرِ الأوروبيّ الحديثِ، ثمّ الانصهارِ فيهِ، مثل: سلامةَ موسى، أوْ إدراكِ خطورتِهِ، والوقوفِ ضدّهِ، كتوفيقِ الحكيمِ، وزكي مبارك، ومحمد حسين هيكل.
- برزَتِ الأنا في نشأتِها الأولى مقهورةً ضعيفةً عاجزةً مسجونةً في آفتِها، تختزنُ النقمةَ والسخطَ على قدرِها وعلى أوضاعِها، بفضلِ حاسةِ التأملِ الناقدِ لديْها، وقسوةِ البيئةِ وإهمالِها، ثمّ استطاعَتْ أنْ تكافحَ وتنتصرَ على قسوةِ تلكَ الأوضاعِ، ووجدَتْ في مدرسةِ الجريدةِ، والجامعةِ المصريةِ، والمستشرقينَ، والثقافةِ الأوربيةِ والمرأةِ الفرنسيةِ، بديلاً رضيَتْ عنْهُ الذاتُ أحسنَ ما يكونُ الرضا، وشعرَتْ بالتحالفِ معَ هذهِ المكوناتِ بالتساوي معَ الآخرينَ، ثمّ التفوقِ عليْهم؛ لذا ظلّ طهَ حسين متشبثًا ووفيًا لها؛ لكونِها سببَ تفوقِهِ وانتصارِهِ.
- شاعَتِ القسوةُ والحدةُ في عبارتِهِ تجاهَ الآخرِ المصريِ أوِ العربيّ أوِ الإسلاميّ، كصورةٍ منْ صورِ الانفصالِ الفكريّ والشعوريّ عنِ البيئةِ القديمةِ بكلّ مكوّناتِها: التاريخيةِ والفكريةِ والعاطفيةِ.
- خفتَتِ المراجعاتُ وكادَتْ أنْ يغيبَ في سيرتِهِ تصحيحُ المسارِ، وظلَّ طهَ حسينٍ على عنادِهِ وتمسكِهِ بمواقفِهِ السابقةِ التي اتخذَها وأوردتْهُ موردَ الغضبِ منَ الناسِ وقطْعِ المودةِ معَهم، والاشتباكِ العنيفِ معَ ثقافةِ المجتمعِ الذي ينتمي إليْهِ.
- قفزَ طهَ حسينٍ عنْ أدوارٍ مُهمةٍ في حياتِهِ، ونشرَ عليْها ثوبَ النسيانِ؛ لعلّهُ كانَ ملوماً فيها، أوْ لكيْ يريحَ الذاتَ منْ تذكرِ تلكَ المرارةِ في حياتِهِ.
- أتقنَ طهَ حسينٍ لعبةَ الضمائرِ، وتخفي الساردِ وراءَ ضميرِ "الهو"؛ ليوقعَ الدارسينَ في إشكالِ التجنيسِ لنصِّهِ الأدبيِّ، وعمّقَ منْ هذا الإشكالِ اختلاطُ السردِ بالسيرةِ، والفنّ بالتاريخِ.

مصادر البحث ومراجعه:

أمين، أحمد (2003): *حياتي*. مكتبة الأسرة، مصر، الطبعة الأولى.

أنيس، إبراهيم وآخرون (1972): المعجم الوسيط. دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.

البارديـ، محمد (2005): *عندما تتكلم الذات*. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط.

بدر، عبد المحسن طه (1983): *تطور الرواية العربية الحديثة في مصر(1870-1930)*. دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة.

بو حسن، أحمد (1985): *الخطاب النقدي عند طه حسين*. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى.

بيومي، محمد رجب (1982): *شخصيات مظلومة في كتاب الأيام*. مجلة الهلال –القاهرة، ع(90)، 50-57.

توفيقي، عبدالله (2012): *السيرة الذاتية في النقد العربي الحديث والمعاصر– مقاربة في نقد النقد*. عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى.

الجندي، أنور (1977): *طه حسين: حياته وفكره في ضوء الإسلام*. دار النصر، مصر، الطبعة الثانية.

حسين، طه:

= (2009): *الأيام*. دار المعارف، مصر، طبعة 2009.

(1992) طبعة أخرى: مركز الأهرام للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى.

= (1973): *مستقبل الثقافة في مصر (ضمن الأعمال الكاملة)*. *المجلد* التاسع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى.

حسين، محمد محمد (1982): *الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر*. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة.

الخطيب، عماد علي (2009): *في الأدب الحديث ونقده*. دار المسيرة، عمان، الطبعة الأولى.

الدبك، عامر (2010): *السيرة الذاتية في الخطاب الروائي العربي*. مؤسسة الوراق، عمان، الطبعة الأولى.

دراج، فيصل (2005): *الحداثة المتقهقرة (طه حسين وأدونيس)*. المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، رام الله، الطبعة الأولى.

ذهني، محمود (1997): *تذوق الأدب: طرقه ووسائله*. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ط.

الرافعي، مصطفى صادق (1983): *تحت راية القرآن*. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثامنة.

شكري، محمد (2000): *الخبز الحافي*. دار الساقي، بيروت، الطبعة السادسة.

الصكر، حاتم (2004): *السيرة الذاتية النسوية: البوح والترميز القهري*.، حاتم الصكر، مجلة (فصول) القاهرة، عدد63، 208-232.

طوقان، فدوى (2009): *رحلة جبلية، رحلة صعبة*. دار الشروق، عمان، الطبعة الثالثة.

الطويل، فالح (2005): *الذاكرة الجمعية والذاكرة المشتهاة في مدارات السيرة*. مجلة عمّان، ع(121)، 18-22.

عباس، إحسان (1978): *فن السيرة*. دار الثقافة، بيروت، الطبعة الرابعة.

عبد الدايم، يحيى إبراهيم (1975): *الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث*. دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى.

عبد العال، محمد سيد (2012): *أدب السيرة الذاتية*. مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى.

عبد النور، جبور (1979): *المعجم الأدبي*. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى.

الغامدي، صالح (1194): *السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم*. مجلة (علامات) جدة، ج(41)، م(4)، 70-84.

كريم، سامح:

= (2007): *ماذا يبقى من طه حسين*. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية.

= (د. ت): *معارك طه حسين الأدبية والفكرية*. دار القلم، بيروت.

لوجون، فيليب (1994): *السيرة الذاتية*. ترجمة: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى.

مالطي، فدوى (1983): *العمى في مرآة الترجمة الشخصية (طه حسين وقيد مهتا)*. مجلة فصول –القاهرة، م(3)، ع(4)، 61-80.

المرعي، فؤاد (1992): *الانطواء النفسي عند طه حسين*. مجلة جامعة تشرين، م(14)، ع(12)، 159-167.

مندور، محمد (د.ت): *معارك أدبية*. دار نهضة مصر، القاهرة، د. ط.

ابن منظور، محمد بن مكرم (1414هـ): *لسان العرب*. دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة.

مؤلفون، مجموعة (د. ت): *طه حسين كما يعرفه كتّاب عصره*. دار الهلال، مصر، د. ط.

وادي، طه (1982): *أيام طه حسين بين الرواية والترجمة الذاتية*. مجلة الهلال، ع(90)، 34-40.